

القسم الثالث

التَّعَرُّفُ عَلَى عِبْقَرِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى

من خلال الاشتقاق وتوليد المعانى

﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَبِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[النحل: ١٠٣]

ملاحظة: عربى، فى الآيه، تعنى: (فصيح) - كما سنعرف فى القسم الرابع).

الموضوع الأول

مثال: الفعل «فَرَجَ»^(١)

- نبحت في هذه المقالة الفعل «فَرَجَ» ومشتقاته من الأفعال والأسماء والصفات.. لندلّل بذلك على أن هناك ثلاثة أشياء ذات أهمية بالغة هي:

الأول - أن اللغة العربية لغة العقلاء، ولذلك فهي تقوم على اشتقاق معقول لا اعتباطي، لأنّ كلّ المشتقات من الأصل اللغوي الواحد يكون لها كلّها معنى «مركزي» واحد، ثمّ تحمل كل صيغة معنىً جديداً، إضافةً إلى المعنى المركزي.

الثاني - أنّ هناك صيغاً وردت في المعاجم لا يسهل قبولها - من حيث الاشتقاق - للوهلة الأولى. ولكن عند النظر المدقّق والبحث عن السبب الذي جعلها تأتي على هذه الصورة.. يُمكن من قبولها، ولكن، من باب الاستعمال الاستثنائي الذي أدى إليه معنىً مخصوص ولدهُ طرفٌ مخصوص. وستتضح أمثلهُ ذلك خلال هذه المقالة.

الثالث - أنّ الأديب أو اللغويّ يُمكن أن يأتي باشتقاقات لم تردّ في المعاجم للتعبير عن المعاني الجديدة. بل يمكننا أن نُولد اشتقاقات «استثنائية» لم يعتدّ أهل اللغة استعمالها، ولم ترد في القديم، تأتي تعبيراً عن حالة خاصة ولدتها الظروف. كأن تأتي باسم الفاعل من فعل - لا إرادى - لا يأتي منه اسم فاعل في المعتاد وإليك التفاصيل:

- فَرَجَ: هذا هو الجذر اللغويّ، وهو فعل ثلاثي.

ومعناه: انكشف واتسع. فَفَرَجَ الشّيءُ: كشفه.

وَفَرَجَ الشّيءُ: اتّسع وانكشف.

والفَرَجُ: الخلل بين الشيين، أى: هو منطقةٌ مكشوفةٌ بينهما. والفَرَجُ: هو عورةُ الرجل والمرأة. وسُمّيَ فَرَجُ المرأةِ هكذا: لأنه ينكشف عنه الورك، ولأنه ينفرج ما بين شُفْرَيْهِ أى: يتّسع عند الجماع أو الولادة. أما الرجل فقد أطلق على عورته الفَرَجُ لسببين:

الأول: أنه ينتشر فينكشف أو يكاد أو يكون واضحاً وبارزاً في موضوعه فكأنه مكشوف.

والثاني: أنّ الوركين ينفرجان عنه وله أى: ينكسفان. والفَرَجُ: الثغرُ الخوفُ لأنه

(١) كتبت سنة - ٢٠٠١م.

منكشف للعدو لقربه منه. والفَرْجُ: سوارُ الرجل والمرأة. لأنَّ فيه فراغا، والفراغُ نوع من الانكشاف والاتساع.

وفُروجُ الأرض: نواحيها المُتَّسعة المكشوفة. ومفردُها: فَرْجٌ. والفَرْجَةُ: الخصاصة بين الشينيين، كما يقول معجم لسان العرب. والخصاصةُ: الاتساع والانكشاف.

والتفاريح: الفُتُحاتُ التي بين الأصابع، وما بين الأصابع منطقة مكشوفة. ويقول ابن الأعرابي: مفرد التفاريح.. فُفْرَاجٌ. وأنا أرى أنَّ هذا الجمع من الجموع التي لا مفرد لها، مثل: تقاطيع الوجه.. فليس لها مفرد، سواءً أقلنا: تقطاع أو تقطيعه، ومثل: تقاسيم.. فليس لها مفرد، سواءً أقلنا: تقسام أو تقسيمة. والإتيانُ بمفردٍ لكلٍّ من هذه الجموع أو مثلها.. إنما هو «صناعة» لغويَّةٌ.. لم يتكلم بها العربُ. ولا بأس في استعمال المصنوع إذا اقتضاه معنى جديد.

والفَرْجَةُ -بالفتح-.. بالأمر. والفَرْجَةُ (بالضم).. في الجدار والباب. أي- هو الاتساع والانكشاف في كلِّ منهما. ولكن من دقة اللغة العربيَّة أنها تستعمل - غالبا - صيغةً لكلِّ معنى، وإن تقاربَ المعنيان. فالانكشاف في الأمر أو المشكلة معنويٌّ وليس ماديا. ولهذا.. جاءت الفاء مفتوحةً. أما الانكشاف في الجدار والباب إنما هو ماديٌّ. ولذلك ضُمَّ أوَّلُهُ ليختلفَ مبناهُ عن مبنَى المعنويِّ. وهذا.. نوعٌ من الاشتقاق بالحركات. كما أننا نُفَرِّقُ في المعنى باستعمال الاشتقاق بالحروف. ولذلك.. نجمع عينا على عيون، عندما نريد العيون البصرة أو عيونَ الماء. في حين نجمعها على أعيان، عندما نريدُ التعبير عن عِلْيَةِ القوم. ومن المطرد في اللغة أن الماديَّ يُضَمُّ أوَّلُهُ - وأن المعنويَّ يُفْتَحُ أوَّلُهُ.

ومثل: الفَرْجَةُ والفَرْجَةُ: عَرْفَةٌ وعَرْفَةٌ. فالعَرْفَةُ هي أن تُعْرِفَ بيدك أو بإناء من الماء مرَّةً واحدةً.. أما كميَّةُ الماء المعروفة مرَّةً واحدةً.. فهي: عَرْفَةٌ. قال تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ أُغْرِقَ غُرْقًا يَدِرُوهَ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومثل عَرْفَةَ الماء.. العَرْفَةُ التي هي جزءٌ من بناءٍ تُتَّخَذُ مسكنا أو مكتبا. لأن هذه وهذه شينيان «ماديان». وجمع العَرْفَةُ: عُرْفٌ وعُرْفَاتٌ، كما ورد في القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ لِّبَعْضِ مَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ: ٣٧].

- وبالنسبة: لماذا جاء في الآية الأولى «غرفا» وفي الآية الثانية «الغرفات»؟

مفهوم أن الجمعيين لمفرد واحد هما اشتقاقان لهذا المفرد، ولا يجوز أن تُستعمل فيما نكتب إلا أحد الاشتقاقين، إلا إذا اختلف المعنى. عندئذ من الدقة أن تأتي بكل جمع في موطنه. وهكذا كان في القرآن - الكتاب المعجز - فقد استُعملت «غرفا» وهي جمع تكثير مع المؤمنين الذين يعملون الصالحات. واستُعملت «الغرفات» وهي جمع يدل على القليل مع المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع أنهم أصحاب أموال وأولاد. والأموال والأولاد. غالبا ما تصرفان عن بعض العبادة والعمل الصالح. أما قال الله تعالى: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» أما اعتبر الحق تعالى أن كثرة المال لرجل وكثرة الولد.. إنما هما نعمتان يجب على الإنسان أن يعبد ربه كفاء ما قدّمه له منهما، فإذا لم يفعل غضب عليه وتهدده وتوعده؟ قال تعالى في هذا السياق: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ [المدثر: ١١ - ١٣]. ولكنه لم يؤمن، فوجه الله تعالى له هذا التهديد الشديد.

ولذلك.. فالذين يؤمنون ويعكفون على عمل الصالحات من أصحاب الثروات والعدد الكبير من الأبناء.. أقلّة. لأن الثروات والأبناء تدفع كثيرا منهم إلى أن تأخذهم العزة بالإثم. ولذلك.. جاء التعبير بالإيمان والعمل الصالح من باب الاستثناء. وبعد أن سبق أن الأموال والأولاد لا تقرب المرء من الله تعالى.

وعلى ذلك فالؤمنون منهم أقلّة.. فالكثرة المؤمنة استعمل معهم جمع الكثرة، والقلة المؤمنة استعمل معهم جمع القلة.

- ومما يُمثّل به على أن جمع المؤنث السالم، غالبا ما يدلُّ على القلّة، قولُ حسان بن ثابت - رضى الله عنه - يفتخر بكرم قومه:

«لنا الجفّناتُ الغرُّ يلمعنُ بالصُّحى» فقال: «الجفّنات» ولم يقل: «الجفان». ولذلك انتقده النابغة الذبياني في سوق عكاظ الذي^(١) كانت تُضرب له فيه خيمة من آدم أى: من جلد..

(١) (سوق) - مؤنث مجازى. والمؤنث المجازى الذى لا تظهر فيه علامة تأنيث يمكن استعماله مذكرا، وتأتيه.. أقرب إلى العادة والاصطلاح، ولذا.. يمكن تذكيره. وقد دعوت إلى التساهل في استعمال المؤنث = المجازى، والمذكر المجازى، في كتابي (الرؤى النحوية) - ٢٠٩/٢ - ٢١١.

ليحكم بين الشعراء - انتقدهُ باستعماله الجفنات وليس الجفان، لأنَّ الجفنات تدلُّ على القليل. ولذلك.. عندما أراد الحقُّ تعالى أن يُبينَ فضلهُ على سليمانَ - عليه السلام - بأمره الجنُّ بأن يُطيعوه قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَنَسِيلٍ وَّحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣] فاستعمل جمع التكسير «جفان»^(١) للدلالة على الكثرة ولم يستعمل: الجفنات، جمع المؤنث السالم، لدالتها على القلة.

- والفَرْجَةُ: الراحة من حُزن أو مرض، والراحةُ منهما إنما هو انكشاف لهما أي: زوال. وهو انكشاف معنوي لا مادي. وجمع الفَرْجَةِ: فُرُجَاتٌ وَفُرُجٌ. وأرى أنه يمكن أن يضاف: فُرُجٌ بضم الفاء، وفتح الرَّاء. لأنه يمكننا أن نُضيف من المشتقات ما تدعو إليه الحاجة. بل إن كثرة الجموع التي تأتي من مفرد واحد تُسهِّلُ الاستعمال، فسواء صَمَمَت أو فتحت - مثلا - فالكلام صحيح. وهذا ناتج عن أنَّ العربية مُستقرأة من سبع لهجات، بينها اختلاف في «قليل» من اللفظ.

- والفَرْجُ: ورجلٌ فَرَجٌ: لا تزال تتكشف عورته. وذلك في الحال التي يحدث فيها ذلك بغير قصد منه، وإنما هي عادة. وأرى أننا نستطيع أن نقول: رجلٌ فَارِجٌ: إذا كان «يقصد» كشف عورته. وَفَرِجٌ على وزن فَعِلٍ إنما هو صفة مشبهة سَدَّتْ مَسَدَ اسمِ الفاعل، لأن الأفعال «اللاإرادية» لا يأتي منها اسمُ فاعل غالبا، لأن من يتصف بها ليس فاعلا لها وإنما هو مُتَلَقٌ لها. فإذا قصد أن يقوم بها، إراديا، جاز أن يأتي منها اسم فاعل لأنه، في هذه الحال، يكون فاعلا لها، وإن كان هذا يقع من باب الاستثناء. ومن هذا الباب نستطيع أن نقول: رجلٌ مَفْرُوجٌ (أي: اسم مفعول) إذا كشف آخرُ عن فَرْجِه، رغما عنه. وإن لم يقع هذا الاشتقاق في الماضي. لأن المعنى يستدعي اللفظ، أو بعبارة أخرى: لأن المعنى ولفظه ينبثقان إلى الوجود معا دائما، فقد يكون موجودا، وقد لا يكون، فيقوم الأدباء واللغويون باشتقاقه. لأن اللغة التي لا تستجيب لتطورات الحياة والمعاني المتجددة بتجدد الظروف والأحوال.. تنتهي إلى الانزواء أو الاضمحلال أو الانقراض. واللغة العربية من اللغات المتدفقة بالحيوية التي تستطيع أن تستجيب للجدديد، عن طريق خمس طرق وأكثر، وهذه الطرق هي:

١ - الاشتقاق.. بأنواعه المختلفة: الكِبَار، والأَكْبَر، والكَبِير، والصغير.

(١) هذا لا يعني أن جمع التكسير يدلُّ على الكثرة دائما، بل هناك أربعة جموع تكسير تدلُّ على القلة.. غالبا، وهي على وزن «أفْعُل، أفْعِلَة، أفعال، فِعْلة».

٢ - تطور الدلالة - مع احتفاظ الكلمة بمعناها الأول - أحيانا - ونسيانه - أحيانا - أخرى - وقد يكون للكلمة - عشر - معان. المهم أن يكون بين معانيها - اشتراك - فى المعنى الأصلي.

٣ - التضمين: كأن تتضمن كلمة معنى كلمة أخرى. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ - (النساء - ٢) فكلمة (ولا تأكلوا) تضمنت معنى (ولا تجمعوا).

٤ - التعريب، مثل قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ - (الإسراء - ٣٥) - فالقسطاس - مُعَرَّبَةٌ.

٥ - الدخيل: مثل كلمة (الأسبرو) - لدواء.

- والأفْرَجُ: العظيمُ الأَلَيْتَيْنِ، لا تكادان تلتقيان. ويقول لسان العرب: «وهذا فى الحبش» ولأنهما لا تلتقيان فهما تكشفان ما بينهما. والفعل: فَرَجَ يَفْرُجُ فَرَجًا. ولا أرى مانعا من ضمِّ الرَاءِ، لأن الضمَّ يدل على الاتصاف الثابت.

ومن معانى الفَرْجِ كذلك الفَرْجُ بَعْدَ الشِّدَّةِ: وهو انكشاف الهمِّ والغَمِّ. ولذلك فهو اتَّسَاعٌ معنويٌّ أو انكشافٌ معنويٌّ، وليس بمادى، لأن الإنسان يحسُّ فى مثل هذه الحالة بطلاقةٍ وانسراح.

- والفُرجُ الفِرْجُ: الذى لا يكتُم السرَّ أي: الذى يكشف السرَّ. وهو انكشافٌ معنويٌّ كذلك.

والكلمتان: الفُرجُ والفِرْجُ.. لغتان لمعنى واحد أي: أنهما لهجتان عربيَّتان جاهليَّتان، كلُّ لهجةٍ لقبيلةٍ مختلفةٍ عن الأخرى. ومن المعروف أن اللغة العربية لم تُجمع من لهجة واحدة وإنما جمعت من سبع لهجات، فى مُقدِّمتها لهجة قريش فى مكة المكرمة. وهذا يعنى أن لبعض المعانى لفظين؛ كلُّ لفظٍ لقبيلة. وفى ذلك تيسير على المتحدث أو الكاتب، فإذا قال - مثلا - يكفُل - بضمِّ الفاء - فهو مصيب، وإذا قال: يكفَل - بفتح الفاء - فهو مصيب كذلك. ولكن اللهجات متماثلة فى خمسٍ وتسعين بالمئة من الألفاظ. فالاختلاف بينها قليل جدًا.

-وقوسُ فُرْجٍ وفارجُ وفريجُ: منتفخة السَّيْتَيْنِ (أى: منتفخة الطرفين) والانفراج يعنى الانفجاج ويعنى الانكشاف والاتساع بين الشئيين. أما فُرْجٌ وفريجٌ.. فهما صفتان مشبَّهتان

(أى: صفتان ثابتتان)^(١).. تشيران إلى أن المتكلم بهما يرى أن الانفراج يأتي بين طرفي القوس من عوامل خارجية، لأن القوس.. جماد ليس لها^(٢) يدان فيما يحدث له. أما من قال: فارجُ.. فقد شخّص القوس، لأنه اندمج بها شعوريا، فبتَّ فيها الحياة. ولذلك.. تصور أنها هي التي تقوم «بإرادتها» بالانفراج. وتشخيص الجوامد يجرى على السنة الشعراء. أما قال ذو الرمة؛ شاعرُ الحُبِّ والصحراء في القرن الأول الهجري:

وعينانِ قال الله: كونا، فكانتا فعولانِ بالأليابِ ما تفعلُ الخمرُ؟

هو بذلك يبتّ الحياة في العينين، ويشخّصهما، ويتعامل معهما وكأنهما شخص عاقل: يُؤمّرُ فيطيع. ذلك أنه أسبغ على هاتين العينين.. مشاعره وأحاسيسه وعاطفته.

— بل أما قال أبناءُ يعقوب — عليه السلام — لأبيهم: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُّوْا مِنْهُ حَكَاوُا نَجِيًّا قَالِ كَبِيْرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوْا اَنْكُ اَبَاكُمْ قَدْ اَخَذَ عَلَيْنَا مَوِيْعًا مِّنْ اَللّٰهِ وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَّطْنَا فِي يَوْسُفَ فَلَنْ اَنْجِ الْاَرْضَ حَتّٰى يَأْذَنَ لِيْ اَبِيْ اَوْ يَحْكُمَ اَللّٰهُ لِيْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيْنَ ﴿٨٠﴾ اَرْجِعُوْا اِلَيْ اَبِيكُمْ فَقَوْلُوْا يٰٓاَبَانَا اِنَّكَ اَبْتُنَا سَرَقًا وَمَا شَهِدْنَا اِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حٰفِظِيْنَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف: ٨٠ - ٨١]. فلأنهم كانوا «صادقين» حسب ما ظهر لهم في واقعة السرقة فقد انعكست عواطفهم وأحاسيسهم الصادقة على القرية فحدث اندماج بينهم وبينها. بحيث خيّل إليهم أنها عاقلة. تُسأل فتجيب، وأنها قادرة على الشهادة لهم أمام أبيهم، لقد أنسنوا القرية^(٣).

— بل إن الانفراج بين الشعراء وبين الجوامد، وبين أبناء يعقوب وبين القرية.. مما خيّل إليهم أنّ هذه الجوامد ذات عقل.. أصبح حقيقة لسيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — فقد كان يخطبُ في بدءِ بناء المسجد النبويّ على جذع شجرة. وبعد حين بنى الصحابة — رضوان الله عليهم — منبرا للرسول الكريم ليخطبُ من عليه. وفي أول مرة

(١) انظر: (الرؤى النحوية - ٣ / ١٤٩ - ١٦٦).

(٢) القوس.. تُذكّرُ وتؤنثُ، فالوجهان جائزان.

(٣) ولا تلتفت إلى المفسرين الذين يقولون: «واسأل القرية» تعني: «واسأل أهل القرية».. فهذا تجاهل لحقيقة نفسية شعورية. وهي أنه إذا امتلأت النفس والمشاعر بالانفعال بدت لها الجمادات أو النباتات «عاقلة» وكأنها أفراد من الناس. أما قالت أخت ابن طريف عاتبة على شجر الخابور الذي لم يسقط ورقه حدادا على ابن طريف:

فيا شجرِ الخابورِ مالكُ مُورقا كأنك لم تجزَعِ علي ابنِ طريفِ؟

اعتلاه الرسول الكريم ليخطب.. أخذ الجذع «يَحِنُّ» كحنين النَّيِّبِ (أى: النوق)، ولم يُكْفَ عن الحنين حتى نزل الرسول الكريم عن المنبر، وربّت عليه وطيب خاطرهُ.. فصمت. الله تعالى بثّ الحياةَ فى هذا الجذع اليبس ليحنّ حنين النَّيِّبِ حُزناً على فراق الرسول - صلى الله عليه وسلم - له. إنه اندماج حقيقى وليس اندماجاً مُتَخَيِّلاً بسبب صدق العواطف وَجَيْشَانِهَا. وقانونُ بثّ الحياةِ فى الجوامد من قوانين الكون. وما بثّ الحياةَ فى طين آدم - عليه السلام - إلا من هذا القبيل.

-نخلص من هذا، فى مجال اللّغة، إلى أن الألفاظ ذات المعانى اللارادية.. يمكن أن تُعطى معنىً إرادياً، إذا تمثّل المتكلم فيها المعنى الإداريُّ أو تخيّلهُ المتكلم، لأنه اندمج فى مادة الكلمة المعنوية أو الجامدة. ولهذا.. فمادة «فَرَحَ» مثلاً - مادة لا إرادية، ولذلك لا نقول بشكل عامّ، رجل فرح، وإنما نقول: رجل فَرِحَ أو فَرِحَانُ. لأن مصدر الفرح خارجيُّ، فهو لا يفرح إذا أراد أو يغضب إذا أراد. ولكن على النادر نجد رجلاً متفائلاً جداً بحيث يفرح لأقلّ المفرحات أو يتكلف الفرح حتى يشعر به، بحيث يمكننا أن نقول: كلما رأيتُ هذا الرجل وجدته.. فارحاً. أى: استعملنا معه اسم الفاعل. ونقول: محمود كان فى حفلة الطرب مفروحاً (فنستعمل معه اسم المفعول) لأن قوة الطرب التى أحاطت به وهزّت أعماقه، فاستجاب لها وهو كالمجبر..، ولدت فى ملامح وجهه فرحاً. وهذا.. وَضَعُ نادر جداً. ولكنه ليس مستحيلاً، لأن الألفاظ تبعُ للمعانى.

- فَرَجَةٌ: هزيمة. ومثالها.. قولهم: «أذكروا القومَ على فرحتهم» أى: على هزيمتهم. وسُميت الهزيمة: فَرَجَةً.. لأن المنهزمين ينفرج بعضهم عن بعض، إذ لا يبقى تنظيم يشدهم. وبذلك تكون الأرض بينهم «مكشوفة» لاتباعِ المسافة بين كل واحدٍ وآخر. وبذلك.. فهم خلاف المنتصرين الذين يتقدمون أو يرجعون بتنظيم. ومن تكتيك الحرب فى القديم أن يتراصّ المحاربون، ولا يكون بينهم تخلخل: أما قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْرُوضٍ﴾ (١) ﴿[الصف: ٤] أئى لا خلل ولا فرج بين صفوفهم. لأن ذلك أثبت للمحارب بالسيف

أو الرمح وأخلع لقلوب الأعداء. لأن رؤيته لزميله المقاتل ملاصقاً له يحمله على التقدم وعدم الفرار. ولأن رؤية الأعداء لأعدائهم صفوفاً متراسّةً.. يضعف من عزيمتهم على اقتحامهم واختراق صفوفهم.

ومن فَرْجَةٍ.. فالفريج أي: الظاهر المنكشف الذي أدت الهزيمة إلى اتساع المسافة بينه وبين زملائه. وعلى هذا الفريج فى المعركة هو المهزوم.. مثل قتيل أى: مقتول. ويقال: امرأة فريج: للتي أُعْيِتْ من الولادة. وهى فريج، وليست «فارجا» مثلا. لأن الانفراج الذى حَدَثَ بين وركيها إنما كان رغما عنها، لما تُسبِّبه لها الولادة العسرة من آلام مُبْرَحِهِ. وهذا الانفراج «يكشف» عورتها، بل ويباعد بين الشُّفْرَيْنِ، فتتسع المسافة بينهما، وينكشف جُزءٌ من جسم الجنين. فالانكشاف يأتى من ناحيتين: الأولى - اتساع ما بين الوركين. والثانى - اتساع ما بين الشُّفْرَيْنِ.

أما لماذا قيل: رجلٌ فريجٌ وامرأةٌ فريجٌ.. ولم تلحق التاء المربوطة بصفة المرأة؟ فذلك راجع إلى أن ما كان من الصفات على وزن «فعليل» بمعنى «مفعول» فإنها يستوى فيها المذكر والمؤنث. ولذلك نقول: رجلٌ قتيلٌ وامرأةٌ قتيلٌ. ورجلٌ جريحٌ وامرأةٌ جريحٌ. ولا نقول: فريجةٌ أو قتيلةٌ أو جريحةٌ.. إلا إذا جاءت الصفة دون ذكر للموصوف، كأن نضع عنوانا فلا نضع فيه الاسم المؤنث، عندئذٍ نقول: «قتيلةٌ الجوع». وهذا عنوان مقالة كتبها الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى عندما اكتُشف فى جبل المقطم - شرقي القاهرة - جثة امرأة، تبين من تشريحها أن سبب موتها هو: الجوع. وطبعاً.. لا يقع مثل هذا فى مجتمع يسوده الإسلام. أما قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمِ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُرْبَةَ (١٣) أَوْ إِطْعَمِي يَوْمَ ذِي مَسْعَبٍ (١٤) يَتِمَّ ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِيْنَا ذَا مَرْبَةٍ (١٦)﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

وكما نقول: امرأةٌ فريجٌ.. نقول: نعجةٌ أو ناقةٌ أو عنزةٌ.. فريج: إذا أخذت بالولادة فباعدت ما بين وركيها فانكشف ما بينهما.

والمُفْرَجُ: الرجل الذى لا عشيرة له. وقد يبدو لأوّل وهلةٍ عدمُ ارتباط معناه بمعنى المادة. ولكن الذى يدقق فى أمر الرجل المفرج.. يجد أنه لا أعوان له يحيطون به، لأنه لا عشيرة له. مما يؤدى إلى أن تكون الأرض منكشفة حوله. على خلاف من له عشيرة يحيط به رجالها، مما يُعطى ما حوله من الأرض ولا يكشفها، وقد جاءت الصيغة على اسم المفعول من الرباعي، لأن كونه بلا عشيرة ليس من فعله ولا من إرادته، وإنما هو مرغم عليه، وليس له حيلة فى دفعه.

والمُفْرَجُ: اسمُ فاعل، ويقال: دجاجةٌ مُفْرَجٌ: ذاتُ فَرَارِيحٍ. لأن الفراريج (ومفردتها فُرُوجَةٌ وهى صغار الدجاج) تُفْرَجُ عن نفسها بنقر قشرة البيضة وكسرها والخروج منها

عندما يكتمل نموها. وفي ذلك «انكشاف» للفروجة أي «الصوص»^(١). وأصل الفروجة صفةٌ مبالغةٌ، أي: كثيرة التفريج عن نفسها بنقر قشرة البيضة. ولأنها - في أصلها صفة - فإنما جاز أن تأتي للمؤنث والمذكر، مثل: داهية. فنحسن نقول: رجل داهية وامرأة داهية. والتاء المربوطة، هنا، للمبالغة. ورجل علامة وامرأة علامة. وكما أننا نقول: جنينٌ للمذكر والمؤنث.. جاز أن نقول: صوص للذكر والأنثى من صغار الدجاج لأن الملامح التي تميز الذكر من الأنثى غير واضحة.

أما الفروج.. فلعله جمعٌ لفروجة. أما فراريج فجمع الجمع، غالباً، ومعروف في اللغة أن حذف الياء المربوطة من بعض الكلمات يجعلها جمعاً، مثل: بقرة، وجمعها: بقراً، وشجرة، وجمعها: شجرٌ، وفروجة جمعها: فروجٌ، وجمع الجمع: فراريج. وقد سُميت الدجاجة: مُفْرِجاً، على اسم الفاعل، لأن لها عملاً لا يُنكر في تحويل البيض إلى فروج أو فراريج. فهي ترقد على البيض ثلاثة أسابيع أو حولها حتى تخرج منه الفراريج.

طبعاً، الفاعلية الأصلية لله تعالى ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]... لأن البيض يتحول إلى فراريج بقدرته الله. ولذلك فالدجاجة فاعل مجازيٌّ.

كما أننا نقول: عُشْبٌ نابِتٌ. فنصرف الفاعلية للعشب، لأننا نراه ينمو أسبوعياً بعد أسبوع، دون أن نرى فاعلاً خارجياً يُنميه. مع أن الفاعلية، في أصلها، لله تعالى. فالله مُنْبِتٌ - بكسر الباء - والنبات مُنْبِتٌ - بفتح الباء - ولذلك فالفاعلية في النبات إنما هي فاعلية مجازية، ويسمى هذا مجازاً عقلياً.

المُفْرِجُ: المُشْطُ. لأن بين أسنانه انفراجاً، أي: انكشافاً. ولأنه يجعل الشَّعْرَ مُنسَاباً بعد أن كان متكتلاً والانسياب صورة من صور الانكشاف أو الاتساع، لأنه يَمُدُّ الشعر إلى آخر مداه، ويجعل انفراج الشعرات.. بعضها عن بعض واضحاً.

والمُنْفَرِجَةُ: الزاوية المنفرجة في الهندسة هي التي تزيد على تسعين درجة. وبهذا ينكشف ما بين امتداد خطيها، بل يزدادان انكشافاً واتساعاً كلما امتدَّا أكثر فأكثر.

(١) الصوص: صغار الدجاج، بين يوم وعشرة أيام. وبعض اللغويين لم يقبل هذه الكلمة لهذا المعنى. لأن هذا الاستعمال لم يرد في المعجم بشكل مباشر. ولكن الجمهور الذي استعمل هذه الكلمة لهذا المعنى على صواب. لأن معناها في المعاجم: البخيل. والعلاقة قائمة بين صوص الرجال وصوص الدجاج.. فالأول حقير الفعّال والآخر حقير الحجم. فالحقارة.. هي العلاقة الجامعة بينهما. إذن، قل: صوص الدجاج.. ولا تُبَالِ.

والمَتَفَرِّجُ: جَمْعُهُ: المتفرجون: وهم الذين يشاهدون الصور فى السينما أو التلفاز أو الفيديو أو الإنترنت، أو يشاهدون المسرحيات والعروض.. الخ. وهم متفرجون لأنهم يُبقون المسافة بينهم وبين هذه الصور والمناظر «مكشوفة». وهو استعمال حديث غير موجود فى المعاجم. ولكنه استعمال لا غبارَ عليه، لأنه يجرى على نفس القاعدة. أى: فيه المعنى المركزى للفعل: (فَرَجَ)، ومعنى جديد تطلبه التطور الحديث.

وفِعْلُهُ: تَفَرَّجَ يَتَفَرَّجُ. واسم المفعول: مُتَفَرِّجٌ عليه. والمصدر: التَّفَرُّجُ، واسم المصدر: فُرْجَةٌ. والفُرْجَةُ أيضا هى الشئ الذى يُتَفَرَّجُ عليه، أى: بينه وبين المتفَرِّج مسافة «مكشوفة».

وأَفْرَجَ عن السجناء: أَطْلَقَ سراحَهُمْ. والسجناء الذين أطلق سراحهم... «انكشفوا» بعد أن كان السَّجْنُ يخفيهم. وَأَفْرَجَ.. فَعَلَ مَبْنِيٌّ للمجهول. ويمكن أن نورده مَبْنِيًّا للمعلوم، فنقول: أَفْرَجَ مديرُ السَّجْنِ عن السجناء، أى: أطلق سراحهم. وقد فَضَّلَ الفعل المَبْنِيُّ للمجهول هنا على الفعل المَبْنِيِّ للمعلوم.. لأن هذا المعنى، الأصل أن يُعبر فيه بالفعل المَبْنِي للمجهول. لأنه ليس المهم الشخص الذى أطلق سراحهم، وإنما المهم.. إطلاق سراحهم. ولأن «الإيجاز» مقصد من مقاصد الفصاحة إذا استطاع أن يُؤدَى المعنى.. المطلوب أداء تاما. وهو هنا، مُؤَدَّ للمعنى المطلوب وللمعنى المقصود.

وبعد: أُرأيت أن هناك عشرات الكلمات التى تتولد من الجذر اللغوى الواحد، وتتحد معه فى المعنى «المركزى» إضافةً إلى معنى آخر جديد. مما يُسهِّلُ تعلم اللُّغة، بحيث يكاد المتعلم أن يعرف معنى عشرات الكلمات إذا عرف معنى الجذر اللغوى لهذه الكلمات؟

وأن اللُّغة العربية منطقية وليست اعتباطية، لأن اللفظ فيها لا يأتى مقدا على المعنى، وإنما المعنى لا ينفك عنه اللفظ الملائم له. ولهذا.. يأتى المعنى غالبا جاريا على القواعد المتعارف عليها فى اشتقاق الألفاظ. ولكنه يأتى أحيانا استثناء على هذه القواعد، لأن المعنى لا يتضح وضوحا تاما إلا بهذه الاستثناء والله ولى التوفيق.

الموضوع الثاني

كَلِمَةُ (سَرٍّ أَوْ سَرْرٍ)^(١)

نعالج في هذه المقالة.. أصلاً لغوياً واحداً هو: «سَرَّرَ» بفكّ الإدغام، وبالإدغام «سَرَّ»، وما تفرّع عنه، مما يشير إلى عبقرية اللّغة العربيّة، وقدرتها على التنويع من حيث الصيغ، ومن حيث معاني هذه الصيغ. وهو كالآتي:

١ - سَرَّهُ: فعلٌ ماضٍ، يسرُّه سروراً أي: أفرحه، والرباعيُّ منه: أسرَّ يسرُّ الشيء أي: أخفاه وأظهره. وهذا يعني أنّ «أسرَّ» من الأضداد. مثل: الجوّن، فهي تعني الأبيض والأسود. ومثل: جَلَلٍ.. فهي تعني العظيم والحقير. ويتبين المعنى المقصود لهذه الكلمة التي لها معنيان متضادان من «السياق». وسُمِّي السَّرُّ سَرّاً.. لأنه يسرُّ، صاحبه عندما يكتمه، فالإنسان يُسرُّ عندما يجد أن إرادته من القوّة الكافية بحيث يتمكن من عدم إفشاء سرّه. من ناحية أخرى.. فإنّ الشخص الذي تُسارّه أي: تُفشى إليه سرِّك يسرُّ لأنّ معرفة الأسرار ممتعة للإنسان الذي خُلِقَ بطبعه مُحباً للاستطلاع، ولأنه يُسرُّ، أيضاً بأن يعرف السرّ. والإنسان يسعد عندما يشعر أن الآخرين يثقون به فيطلعونه على أسرارهم.

هذا.. معنى الإخفاء. أما معنى الإظهار.. فهو آتٍ من أن الإنسان يندر أن يكتم أسرارهِ. وإنما تضيق بها نفسه فيعلنها إلى صديقه، مما يؤدي إلى إظهارها. لأنك إذا كنت بسِرِّكَ ضيقاً.. فصديقك به أشدُّ ضيقاً، مما يدفعه إلى إعلانهِ وإظهارهِ لأحد أصدقائه. وهذا الأخير لا يقوى على كتمه بل يُذيعه بلا تحفّظ. وكلُّ سرٍّ جاوز الاثنيين.. شاع.

ولعل أفضل تفسير لقوله تعالى: «وأسروا الندامة لما رأوا العذاب» أن بعض الكافرين أخفى ندمه وكتمه في نفسه، وأن بعضهم الآخر أظهر ندمه، وفضح نفسه أمام الناس. وبذلك.. اجتمع الضدان في هذه الكلمة في موقعها من القرآن.. وهذا يشير - من ناحية أخرى - إلى إعجاز القرآن اللُّغويّ، فالكلمة فيه تحمل كلَّ الشحنة التعبيرية الكامنة فيها.

(١) كتبت سنة - ٢٠٠١م.

٢ - وتَسَارَوْا: تناجَوْا. هذا معنى آخر لكلمة مشتقة من «سَرَر». وقد جاز أن يأتي من الأصل الثلاثي مُسْتَقُّ آخر بمعنى مقارب، وهو النجوى. لأن النجوى نوع من السَّر. أو درجة من درجات السَّر، لأن المتناجين يقصدون أن يخفوا موضوع نجواهم عن غيرهم من الناس. قال تعالى عن المسلمين الذين يخفون بِرَّهم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - : ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْأَنْعَامِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيْ أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبِهِمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسَأَنَّ الْمَاصِرَ ﴿٨﴾ [المجادلة: ٨].

هذا.. يعني من جهة أخرى، أن لكثير من الكلمات في اللغة العربية أكثر من معنى واحد. ولكنها كلها لها «صلة» من نوع ما.. بالمعنى الأصلي. فليس هناك اعتباطية في اشتقاق كلمات من الجذر اللغوي، في جميع الدلالات التي تكتسبها هذه الكلمات خلال تطور اللغة، مما يدل على أن اللغة العربية لغة «منطقية». أراد الله تعالى للعرب في الجزيرة العربية الذين يتكلمونها أن يكونوا عقلاء منطقيين في الدلالات التي يعطونها للألفاظ المشتقة من جذرها اللغوي، بحيث يكون هناك «صلة» تربط بين كل هذه الدلالات. وذلك.. مما يسهل تعلم اللغة، فكل صيغة مشتقة من الجذر الفعل (وهو: سر)، لابد من أن يتصل معناها بطريقة أو أخرى يدركها العقل بهذا الجذر اللغوي. فلنمض بإيراد هذه الصيغ المشتقة من الفعل الثلاثي: سَرَر أو سَرَّ، عند الإدغام.

٣ - استسَرَّ الهلال آخر الشهر: حَفِي. فهذا الفعل المكون من ستة أحرف.. إنما هو متصل اتصالا مباشرا بجذره اللغوي «سَرَر». لأن سرَّه: من ناحية أفرحه. والفرح ينبع من الخفاء، وهو ما يحسُّ به المرء في أعماقه. ومن ناحية أخرى فيه ظهور، وهو ما يبدو على أسارير وجهه من انبساط فالخفاء واضح في المعنى الأول.

٤ - السَّرُّ: الجماع. لأن الرَّجُل والمرأة يعملان على إخفاء اتصالهما الجنسي.. ولكن آثار ذلك تظهر على ملامح الوجه. أما ترى الفتاة العانس يكون على وجهها من التجاعيد.. ما لا يكون على وجه من هي في مثل سنِّها. إذا تزوجت في العشرين مثلا أو على الأكثر في الخامسة والعشرين من عمرها؟ فالخفاء والظهور (وهما المعنيان المتضادان في كلمة: أسرَّ، بل في الجذر: سرُّ) قائمان في علاقة الجماع. يُضاف إلى ذلك أنه يتمثل في الجماع.. السرور وهو المعنى الأوضح في الجذر: سَرَّ.

٥ - السُرِّيَّةُ هي الجارية المتخذة للملك وللجماع. وسُميت سُرِّيَّةً.. لأن الجماع فيه سرّاً ولأن علاقة صاحبها بها خفية وظاهرة؛ خفية.. لأن من عادة الناس أن يخفوا عملية الاتصال الجنسي. وظاهرةً.. لأنه معلوم بالعرف أن الرجل الذى يملك جارية جميلة.. يتخذها مكاناً لمتعته فهذا الأمر المعروف ظاهر الحقيقة.

وبالنسبة نقول: إن عهد الجوارى قد مضى. لأن المصدرين الرئيسيين للحصول على الجوارى إنما هما.. بيع العبيد. والعبيد قد حُرِّروا فى العصر الحاضر.. فلم يعد بيعهم مقبولاً أو وارداً. ثم الحروب هي المصدر الثانى. ولكن تطور الزمن وتقدم الحضارة، والإيمان بكرامة الإنسان وحقوقه اللذين دعا إليهما الإسلام منذ القديم، وأخذت بهما المجتمعات الحديثة. وثبتت ذلك فى الوثائق التى تنص على وجوب احترام كرامة الإنسان والاعتراف بحقوقه. هذه الوثائق التى تبنتها بعض الثورات الحديثة، وهيئة الأمم المتحدة التى تضم معظم العالم فى عضويتها. بذلك.. جُفِّفَ المنبعان اللذان يأتى عن طريقهما الرِّقُّ، وما يتبعه من اتخاذ الجوارى.

وبالنسبة، مرةً أخرى، يقال: سُرِّيَّةٌ - بضم السين - وهي الجارية التى يمارس معها مالِكها الجنس. وسُرِّيَّةٌ - بكسر السين - وهي «الحرَّة» التى يمارس معها زوجها الجنس. وهذا.. دليل على دقة اللُّغة العربيَّة فى استعمال الألفاظ للمعاني.. فالمعنيان المختلفان؛ غالباً، يكون لكل منهما «صيغة» مختلفة عن صيغة المعنى الآخر، ولو بالحركة والحركة هي نوع من أنواع الاشتقاق. وجُعِلَ اللفظ الأصعب عن طريق ضمِّ السين للجارية، والأسهل، عن طريق كسر السين للحرَّة، لأن امتلاك الحرَّة أقرب إلى الحق، وإلى الأمر الأصلى العام، من امتلاك الجارية.

٦ - السَّرُّ: ذَكَرَ الرجل. لأنه هو العضو المستعمل فى الجماع.. بما ينطوى عليه الجماع من سرٍّ أى: من إخفاء. وبما ينطوى عليه من إظهار، كما وضَّحنا ذلك سابقاً لأن العضو، عند الجماع، ينتشر، فيبرز فى مكانه.

ثم.. من المعروف أن الرجل.. يُسَرُّ (يفرج) بعضه التناسلى. وتستطيع أن تقدر ذلك عندما تُدرك ما يعانى به الرجل من حُزن وكمَدٍ الذى يلد وليس له عضو.. خِلْقَةً، أو الذى يُجَبُّ عضوه لسبب من عشرات الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى ذلك، أو الذى لا يُنْعِظُ عضوه لأنه هو الآلة التى توصله إلى السرور بالجماع.

٧ - والسرير: المضطجع الذى يُنام عليه. والجمع أَسِرَّةٌ وَسُرُرٌ. ولا شك أن نوم السرير أطيّب من النوم على الأرض أو على البلاط. ولهذا.. يجد النائم على السرير شيئاً من السُرور. ثم.. إن السرير يُخفيه ويظهره، يخفيه لأن زَرَدَهُ يهبط به بعض الشيء لِثِقَلِهِ عليه، ويظهره.. لأنه يرفعه عن وجه الأرض إلى عين الناظر.

٨ - وَتَسَرَّرَ الثُّوبُ: تَشَقَّقَ. ولا شك أن تَشَقَّقَ الثُّوبُ يَظْهَرُ ويخفى. فمكان الشقوق يَظْهَرُ منه بعضُ جسم لابسِه، ومالم يتشَقَّقَ يُخفى تحته بعض جسم لابسِه. أما أَنه يَسُرُّ - فعلى معنيين: الأول: يَسُرُّ لابسِه لأن تَشَقَّقَ الثوب يعنى - غالباً - الحصول على ثوب جديد. والثوب الجديد يجلب السرور إلى نفس لابسِه. ويسوؤه. لأنه قد لا يجد ثمن الثوب الجديد.

والمعنى الثانى - التضادُّ (وهو تضادُّ آخر - غير الظهور، والإخفاء - فهو تضادُّ - لا فى جذر المادة، وإنما فى كلمة السرور - خاصة) .. فكلمة «سُرور» كما تعنى الفرح قد تعنى - قليلاً - الحزن. أما ترى أَنه ورد فى معجم «اللسان العرب» قوله: سَرَّ البعيرُ يَسُرُّ - بفتح الياء والسين - أصابه «السَّرُّ» وهو داءٌ يأخذ بِسُرَّةِ البعير؟ ولا شك أن البعير الذى يصيبه داءُ السَّرِّ يكون منظره حزينا، وجسمه منكمشا ذوايا؛ لأن السَّرَّ لو أصاب الإنسان (وهو يصيبه) لأحسَّ بالحزن والكآبة.

إنَّ «التضادَّ» نوع من العلاقة كالعلاقة الإيجابية بين الألفاظ المشتقة من أصل واحد. أما ترى أننا عندما يقال: لونٌ أبيضٌ نقارئة باللون الأسود، فورياً وعفويّاً، ولا يستطيع الإنسان أن يدرك البياض إن لم يدرك ضِدَّهُ السواد. إنه نوع من العلاقة «السلبية» الكامنة فى الأشياء. فالحياة تنطوى على الموت، والشباب ينطوى على الشيخوخة، والربيع ينطوى على الخريف، وهكذا... والتضاد .. قانون من قوانين تطوّر معانى الألفاظ.

وبعدُ: فمن الواضح (من خلال هذه الصيغة الأصلية التى عالجتاها) أن الاشتقاق فى اللّغة العربيّة ركنٌ أساسيّ، به نستطيع أن نشقّ عشرات الصيغ (الكلمات) من الأصل اللّغوى الواحد، وكلُّ صيغة مرتبطة بالمعنى «المركزيّ» الذى تدل عليه الصيغة الأصلية. ذلك.. يعنى أننا نهتدى إلى معنى عشرات الصيغ، من خلال معرفتنا لمعنى الصيغة الأصلية (المركزية) وهى غالباً الفعل أو المصدر بل قد تكون الصيغة الأصلية. اسما جامداً، مثل: استحجر الطين، من الاسم الجامد: الحجر. أو اسم استفهام مثل: كَمِيَّة من «كم»

الاستفهامية ، و«كَمْ» الخبرية. أو مثل : «ماهيّة» المشتقة من العبارة الاستفهامية : ما هي؟ أو حرف جرٍّ مثل : «عنَّ»^(١) وما يُشتقُّ من فعل مضارع ، ومصدر واسم فاعل واسم مفعول.. الخ. وهذا .. يشير إلى خطأ البصريين النحاة - والكوفيين النحاة فقد كان نحاة البصرة يرون أن الاشتقاق.. أصله المصدر. أما نحاة الكوفة فرأوا أن الاشتقاق.. أصله الفعل. وهؤلاء - وأولئك لم يوفقوا إلى الصواب الكامل؛ لأن الصواب الكامل أنه يشتق من المصدر ومن الفعل، وكذلك يشتق من الاسم الجامد، ومن الحروف.. كما أوضحنا آنفا.

وهذا يسهّل على اللغويين أن يولدوا من - الأصول - ألفاظا جديدة لتعبّر عن المعانى الجديدة التى تطرحها التطورات الحضارية كل يوم. فى مجال العلوم والمعارف المختلفة. وبذلك.. تستطيع اللغة أن تنمو وتتطور وأن تُجارى التطور الحضاري. واللغة العربية من أقدر اللغات على استيعاب المعانى الجديدة. لأنها.. لغة الاشتقاق ولغة المعانى «المركزية» التى تنبثق عنها معانٍ كثيرة.. تستوعب مستخرجات الحضارة.

(١) والحديث العنَّ: هو الذى رواه الراوى بقوله: عن فلان عن فلان.. الخ

الموضوع الثالث

تحليل لغوي لكلمات ثلاث

فيما يلي كلمات ثلاث ننوي أن نعالجها، مسلطين عليها نظرا فقهيًا، يسبر أغوارها ويوضح دلالاتها اللغوية والصرفية وبعض ما يشتق منها مما لم تورده المعاجم وهي =

١ - لواقح: ومفردها: لاقح. قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]. والزَمْخَسَرِيُّ يقول في تفسيره «الكشاف لواقح بمعنى ملاقح^(١)». ونقول: أفضل من ملاقح.. مُلَقَّحات. لأن جمع مُلَقَّحة - بفتح القاف - على مُلَقَّحات أفصح من ملاقح. كما أن جمع مشكلة على مشكلات أفصح من جمعها على مشاكل.

ولواقح بمعنى ملاقح - أولا - لأن لاقحا تستعمل لاسم المفعول. نقول: ناقه لاقح أى مُلَقَّحة - بفتح القاف وتشديدها - ونياق لواقح أى: مُلَقَّحات - بفتح القاف - والناقحة اللاقح هي التي نَزَل عليها الفحل فأخصبها. وجاز أن يقال: لاقح ولواقح لأمرين: الأول - أن اسم الفاعل استعمل مكان اسم المفعول كما يقال: عيشة راضية بمعنى مرضية. كما ورد في الآية السابعة من سورة القارعة، فاسم الفاعل سدّ مسدّ اسم المفعول.

- والثاني - أن العيشة المرضية فيها معنى الفاعلية، لأنها هي التي تؤثر في أهلها فتجعلهم راضين. فهي اسم الفاعل في المعنى لا في الصرف. ومثلها لاقح ولواقح، فهي - أولا - بمعنى مُلَقَّحة - بفتح القاف وتشديدها - وهي ثانيًا - يُلْمَحُ فيها معنى الفاعلية، لأن الفحل لا ينزو على الناقحة إلا وهي صَبْعَة أى: راغبة. ورغبتها نوع من الفاعلية في المعنى. أما ترى أن الله تعالى قال: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]. لأن معنى الفاعلية يلح في المرأة الزانية، فلم يعملها الزاني إلا وهي راغبة. ولذلك لا تُسمى المرأة المغتصبة - زانية، لأنه يفعل بها وهي غير راغبة.

- وهكذا الريباح.. فهي لواقح بمعنى: مُلَقَّحات - بكسر القاف - لأنها هي التي

(١) سورة (الحجر - ٢٢)

تُخْصِبُ الغيومُ بالمطر. وهي لواقع بمعنى اسم المفعول لأنها تتأثر برطوبة ما تغشاه من الغيم. كما نقول: قضية لاغية أى: ملغية. وهذا.. يدل على غنى القرآن الكريم بالدلالة.. فقد استعمل: لواقع لتعطي معنى الفاعلية ومعنى المفعولية، لأن المعنيين يُلمحان فيها.

- أما لماذا قلنا: ناقة لاقح - بصيغة المذكر أو بلا تاء التانيث المربوطة - ولم نقل لاقحة بصيغة المؤنث؟ فالسبب أنه يُؤتى بالتاء المربوطة للتفريق بين المذكر والمؤنث. إذ نقول: رجل شاعر وامرأة شاعرة. وذلك عندما تكون الصفة سالحة للمذكر والمؤنث. أما عندما تكون الصفة سالحة للأُنثى فقط.. فلا حاجة إلى هذه التاء التى هى تاء التفريق، ولذلك نقول: امرأة حامل، عندما يكون فى أحشائها جنين، ولا نقول: حاملة.. لأن الرجل لا يحمل جنينا ولذلك نعدل عن - حامل - ونقول: حاملة عندما تحمل خبزا مثلا - لأن حَمَلَ الخبز تقوم به المرأة ويقوم به الرجل. ولذلك نقول: رجلٌ حامل خبزا، وامرأة حاملة خبزا.

- يبقى أنه يجوز أن نقول فى غير نصّ القرآن: الرياح مُلقحات - بكسر القاف - على اسم الفاعل، أو ملقحات - بفتح القاف - على اسم المفعول. لأن هاتين الصيغتين قياسيتان. ونحن يجوز لنا - لتيسير استعمال اللّغة - أن نقيس، مع ورود السماع فى القرآن أو فى كلام العرب الذين يُحتج بلغتهم. والسماع أقوى، لأنه الأصل ولكنّ القياس - هنا - مشروط بأن نريد فى الاشتقاق الجديد معنىً جديدا. أما إذا كنا نعبر عن ذاك المعنى فما جاء عن العرب - أولى. ولا ينقاس، وإنما ينقاس ما يُؤدّد معنىً جديداً..

٢ - شَمِتَ: عن أبى موسى الأشعري - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: « إذا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ.. فَشَمْتُوهُ. فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ.. فَلَا تُشَمْتُوهُ » رواه مسلم.

وقد رجعت إلى المعجم لأتأكد من معنى «شَمِتَ» فوجدت المعجم الوسيط يقول: « شَمِتَ به أو بعدوه شماتة: فرح بمكروه أصابه، فهو شامت، جمع: شَمَاتٍ، وهنَّ شوامت. وأشمته الله بعدوه: جعله يشمتُ به. وفى التنزيل العزيز

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْمًا قَالَ يَبْنَؤُنِي مِنَ بَدْيِ أَعْمَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَيْتُمُ الْأَوَاحِ وَأَخَذْتُمْ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

وشمته - بتشديد الميم - بمعنى أشمته. وشمّت العاطس وعليه: دعا له بالخير. كأن يقول له: يرحمك الله..

ومما ورد في: لسان العرب: «.. والشوامت: قوائم الدابة، واحدها: شامته.. قال النابغة الذبياني:

فارتاع من صَوْبِ كَلَابٍ فَبَاتَ لَهُ طَوْعَ الشَّوَامِتِ مِنْ حَوْفٍ وَمِنْ صَرَدِ
والذى ارتاع هو الثور الوحشى عندما سمع أمر الصياد لكلايه لكى تلحق به.. فأسرع
الثور الجرى على شوامته (أى قوائمه) هاربا من الصياد ومن كلابيه.

- إذن، كيف استُخدمت كلمة (شَمَّت) بمعنى الدعاء للعاطس، ومعناها فى هذين المعجمين المعتبرين: فرح بمكروه يصيب العدو؟ استعملت بمعنى الدعاء للعاطس ذلك لأحد سببين أو.. لهما معا وهما:

السبب الأول: أن الرسول الكريم استخدم الكلمة بمعنى «السلب» أى: سلب منها معنى الشماتة (الفرح بمكروه يصيب العدو)، وأعطاهما المعنى الجديد - وهو المعنى النقيض - وهو الدعاء للعاطس بخير كطلب الرحمة له، وهذا السلب معروف فى اللغة. فقد سُمى أحد الخلفاء جاريةً - له - رائعةً الجمال، «قبيحة» وذلك لأمرين: الأول - سلب القبح منها، ومن يُسَلَّبُ القبح منها وتعطى المعنى الضدّ فهى - غالبا - جميلة. والثانى - مواقاةً من العين. فالخليفة لا يريد أن يقال لها: الجميلة حتى لا تصاب بالعين.

ونحن نستخدم معنى السلب فى مهنة من أهم المهن وهى «التمريض» فنقول: المريض والممرضة. ومعناها فى الأصل الذى يجلب المرض للناس. ولكن هذا المعنى «سُلب» منهما، فتُعرف على ان المريض والممرضة هما اللذان يداويان المريض، فيسلبان منه المرض، بقدرة الله تعالى أو يحاولان.

السبب الثانى فى «شَمَّت».. أن القوائم تُسمى «شوامت» لأنها تستطيع أن تنجى الإنسان أو الحيوان من عدوّه هربا منه. فكأنها - بإنجائها صاحبها - تشمتُ بالعدو أو تُشمتُ صاحبها بالعدوّ. وعلى هذا فمعنى «شَمَّتُهُ» ادعُ له بشوامت قوية - قادرة على إنجاء صاحبها من عدوّه. ولا تكون الشوامت هكذا إلا اذا كان الإنسان أو الحيوان صحيح الجسم. أما يقول مريض القلب أو الكلى أو المعدة.. للطبيب: «رجلاى لا تكادان تحملانى؟» فالرجلان أو الأرجل (الشوامت) تتأثر بصحة صاحبها، فتضعف فى المرض، فلا تنجى صاحبها من العدو، وتقوى فى الصحة.. فتُنجى صاحبها وقد تكون الرجلان للإنسان والأرجل للحيوان نفسها مريضة.. فلا تُنجيه من العدو بل تمكن العدو منه. وبذلك

لا «تطيعه الشوامت المريضة، فى حين كانت شوامت الثور الوحشى الذى وصفه النابغة «تطيعه، لأنه كان صحيحا، وكانت هى صحيحة كذلك» وهذا نوع من المجاز الذى أطلق فيه -الجزء- وأريد الكل.

وبالناسبة.. فإن الشعراء فى الجاهلية؛ جُلِّهم، كانوا يجعلون الحيوان ينجو من الصياد، نصرا للحياة على الموت. والصراع بين الصياد وكلايه وبين الحيوان.. يمثل الصراع من أجل الحياة فى الجزيرة العربية التى كان أهلها - فى الجاهلية - يعانون كثيرا من أجل العيش. لقد كانت تقوم الغزوات من أجل السيطرة على منابع الماء والكلأ.. طلبا لاستمرار الحياة وتشبُّثا بالحياة.

- يبقى أن نقول: إن قول المعجم: شامتٌ جمعه شَمَاتٌ وهنَّ شوامتٌ. لا يعنى أنه لا يجوز أن تأتى بالجمع القياسى وهو: الرجال شامتون بعدوهم وللنساء شامتات بعدوهن. أما قال أبو ذؤيب الهذلي، عندما توفى له أربعة أبناء، فى طاعون فشا فى مصر:

وَتَجَلْدِي لِلشَامَتِينَ أُرِيهُمُ أَنِي لَرِيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ

وهذا الجمع يأتى مرفوعا بالواو ومجرورا بالياء، لأنه جمع مذكر سالم. وأبو ذؤيب ممن يُحْتَجُّ بلغته.

أما المعجم فقد اكتفى بذكر الجمعين اللذين أودرناهما لأنهما لا يخلوان من غرابية. وهذا دأب المعاجم.. تذكر من المشتقات ما ليس قياسا وما كان غريبا. وتترك القياسى والمأنوس - غالبا - اعتمادا على معرفة المهتمين باللغة.

وإنه ليجوز لعامة القراء أن يشتقوا ما يشاؤون، لأداء معنى، ما دام الاشتقاق قياسيا. ويجوز للكتاب والأدباء واللغويين.. أن يشتقوا - بذوقهم المصقول - اشتقاق غير قياسية. لان اللغة - أى لغة - تنمو وتتطور بوسائل عدة، منها هذان النوعان من الاشتقاق وبهجتهما (وهجر سائر الوسائل) تتراجع اللغة، وتتخلف عن مجاراة متطلبات الحياة.

٣ - طائح: وقريب من الاشتقاقين اللذين ذكرهما المعجم الوسيط: (شَمَاتٌ وشوامتُ) قول اللسان، وكذلك القاموس المحيط الذى ينقل كثيرا عن اللسان، دون أن يُشير إليه: «طاح يطوح طوحا ويطيح طيحا: أشرف على الهلاك ثم يقول: «وَطَوَّحْتَهُ الطَوَائِحَ: قذفته القواذف. ولا يُقال: المطوحات. وهو من النوادر كقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر - ٢٢].»

وقد بينا سابقاً أنه يجوز أن نقول: لواقحٌ ومُلَقِحَاتٌ - بكسر القاف - في غير القرآن بمعنى أن هذا الجمع - مُلَقِحَاتٌ - لم يرد في القرآن، وما لا يرد في القرآن لا يحل محل لفظ في القرآن.. ومثلها: الطوائح. فأنا أرى أن تَحَكَّمَ اللسان بأنه لا يجوز «المطوحات» تَحَكَّمَ يخالف طبيعة اللُّغة التي يُقبل فيها القياس إلى جانب الاستثناء أو «النادر» كما قال عنه اللسان، في الحالات التي ترد فيها صيغةٌ نادرة. لقد مد البصريون القياس على الأعم الأغلب وفضّلوه على السماع. وهو ما ورد قليلاً أما الكوفيون فقد قاسوا على السماع القليل والسماع الكثير. وهذا أهدى. وبهذا الانفتاح واحترام القياس على القليل إلى جانب القياس على الكثير، تنمو اللُّغة وتتطور. نحن طبعا لا نُحَطِّي من يستعمل النادر أو نعيب عليه، لأنه «سُمِعَ» عن العرب. وكل لغات العرب حُجَّةٌ. كما يقول ابن جنِّي، صاحب كتاب «الخصائص». وهو عُمدةٌ في فهم اللُّغة والتضُّع في التفقُّة فيها أقول: إلا في الإعراب - فالإعرابُ يجب - وُجوباً - أن يؤخذ فيه - بوجه واحد - فقط؛ لأن الإعراب - في كثير من تراكيبه جاء ليعبر عن معنىٍ مضافٍ إلى معنى اللفظ، وقيام إعرابين على الكلمة في تركيب.. يتفرض سبب وجود الإعراب. والإعراب الذي يؤخذ به - إن وُجد - إعراب القرآن، وإن لم يوجد.. فأعراب لغة قريش، فإن لم يوجد.. فأعراب أفصح لهجة من اللهجات الست الأخرى. وإننا لنشجع الذي يستعمل القياس على الكثير وعلى القليل. لأن القياس.. أقرب إلى أن «يعلم» ويتمدد في عروق اللُّغة بل إن الاستثناء أو النادر.. يصلح أسلوباً «معتمداً» لتعليم اللُّغة عند علماء النحو في الكوفة. واللُّغة العربيّة، بشكل عام، لغة قياسية، إذ يغلب عليها القياس في النحو وفي الصرف وإن النادر الذي سُمِعَ عن العرب لا ينقاس، وإنما يُقاس عليه. إنما الذي ينقاس هو كلام المؤلدين.

أكثر ما يصحّ «لعجم اللسان، ولأى كتاب لغويٍّ آخر أن يقول: «ولم يستعمل العرب إلا الطوائح» لأننا أبناء العرب، وكما كانت اللُّغة لغتهم.. فهي الآن لغتنا. ولنا، بل واجب علينا أن نفعل كل ما يجعلها متطورةً صالحة لهذا العصر، وللعصور اللاحقة، ومما يجعلها تتطور مدُّ القياس النحوي والصرفيِّ والدلاليِّ سواءً على مذهب البصرة أو على مذهب الكوفة، أو تجاوز المذهبين.

يبقى أن أقول: إن «طاح» أصلها: طَوَّحَ وطَيَّحَ. لأن عين الفعل، واوِيّةً ويائِيّةً. وذلك فالمصدر: طَوَّحَ كما ورد في المعجم، وطَيَّحَ أيضاً كما نرى. بل يمكن أن يُقال: طَوَّحَانٌ مثلُ

نفرانٍ وغلِيانٍ. واسم الفاعل طائح. أصلها: طايح وطاوح. ثم قلبت الياءُ والواو همزةً. كما نقول: قال يقول: قائل. وقال يقيل (أى: ينام وقت الظهيرة). واسم الفاعل قائل. فقد قلبت الواو في «قال» الأولى.. همزة، كما قلبت الياءُ في «قال» الثانية.. همزة كذلك.

– ومعروف أن «طائحة» جمعها: طوائح – كما وردت في المعاجم. والطوائح أصلها: طواوِحُ وطواويحُ، لأن فعلها واويُّ وياثيُّ أى.. نقول: طاحَ يطيحُ ويطوُحُ. ويجوز أن تُجمع طائحة على طائحات (إضافة إلى ما أوردته المعاجم)، لأن الطائحات.. اشتقاق آخر فلي اللّغة، وهو جمع قياسيٌّ لطائحة لا غبار عليه عند العقلاء من المشتغلين باللّغة. بل إنه ليجوز للغويين والأدباء أن يستعملوا – إلى جانب الصيغة القياسية على الأعم الأغلب – القياس على مع وجود الصيغة النادرة التي يقاس عليها أيضا إذ احتيج إليها لأن توليد ألفاظ جديدة للمعاني الجديدة أمر ضرورى جدا، لكي تبقى اللغة حية وتساير التطور في الحياة.. ولذلك.. يجوز أن نقول: طاح طيحا إضافة إلى قول المعاجم: طاح طوحا. لأن الفعل يائي وواويُّ، كما أسلفنا.

وبعدُ: فإن الذى يظن أن المعاجم حَوَتْ كلَّ المشتقات إنما يدل على جهله باللّغة. إن قُصارى ما تأتى به المعاجم هو جذور الكلمات وبعض المشتقات الغريبة. أما جمهورُ المشتقات.. فتوليده من مسؤولية اللغويين والأدباء والكتاب للتعبير عن المعاني الجديدة التى يأتى بها تطوُّر الحياة كل يوم. وبغير فتح باب القياس والاشتقاق على الكثير. وعلى القليل.. تَضُمُّ اللّغة. وهذا الضمور.. ما نحاول أن نتحاشاهُ وأن نُبعد عن اللّغة متأهًا.

الموضوع الرابع

مادة الفعل عند / تحليلها لغوياً^(١)

في هذه المقالة .. أركز على شيئين:

الأول - أن كل المشتقات من مادة لغوية واحدة، وما أكثرها، ترجع كلها في جزء من دلالتها، إلى المعنى الأصلي أو المركزي الذي يتضمنه الفعل أو يتضمنه أي أصل لغوي آخر. سواء أكان الأصل فعلاً أم مصدرًا أم اسم ذات أم حرفاً.. الخ ثم يستقل كل مشتق بمعنى خاص به.

الثاني - أن يبين من خلال الأمثلة، أن اللغة العربية (بل كل لغة) تتطور دلالات الألفاظ فيها بحيث تحمل اللفظة معاني مختلفة من عصور مختلفة، يموت بعضها أو يتراجع في الاستعمال ويبقى بعضها الآخر حياً. وكذلك تتطور مادتها.. فتنشأ اشتقاقات جديدة للتعبير من معانٍ جديدة. لأن المعنى الجديد.. إما أن تحمله لفظة قديمة أو يُشتق له لفظة جديدة. إن المعاجم تحوى «جذور» الكلمات، وبعض المشتقات. ولكن معظم المشتقات كامنة في جذورها.. تظهر عند الحاجة.

- ولذلك.. يجب أن يُسمح بالتطور اللغوي، سواء أجا عن طريق دلالات جديدة للألفاظ أو عن طريق اشتقاق ألفاظ جديدة، لأن حياة اللغة تكمن في أن يُسمح لقوانين اللغة أن تستمر في فاعليتها. ومن قوانين اللغة تطور الدلالة بشقيه السابقين، وتوليد مشتقات جديدة. وهذا.. لا يتعارض مع أن الفصحى، في أصولها، إلهامية.

- وفي الصفحات اللاحقة سنعالج مادة «عند» ومشتقاتها:

١ - يقول معجم لسان العرب: «.. رجل عنيد: عاند» يعني المعجم أن معنى (عنيد) هو: (عاند). وأنا أرى أن هذا نوع من التوسع «فليس من صيغتين في اللغة العربية بمعنى واحدٍ. فصيغة رحيم مثلا ليست كصيغة راحم. لأن الأولى تعني تأكيد الرحمة. أما الثانية فتعني الذي عنده رحمة عادية، كما هو حال نسبة كبيرة من الناس. أما ترى أن الحق تعالى قال: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١] فأرحم الراحمين ليس راحما وإنما هو فحسب رحيم. لأنه مفضل على الراحمين أي:

(١) كتبت سنة - ٢٠٠١م.

لأن (أرحم الراحمين) - رحيم . أى : صيغة «توكيد» ومفردتها : راحم. أما قال تعالى : ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

فإنه تعالى - لهذا - لم يوصف في القرآن كله بأنه راحم. بصيغة اسم الفاعل، وإنما وصف بأنه رحيم وهي الصيغة التي تدل على توكيد الرحمة لأنها صيغة مبالغة^(١) أى : صيغة ثبات وتوكيد. وهذه أكثر توكيدا من اسم الفاعل.

- لهذا.. فعاندُ اسم فاعل، ولذلك ففيه من العناد قدرٌ محدود. ولكن عنيدا صفة ثابتة مؤكدة، ففيها من العناد الشيء الكثير. ولذلك فالعاند يمكن أن تثنيه عن عناده، أما العنيد فلا يمكن تثنيه، لأن العناد مترسِّخٌ في جِبَلِيَّتِهِ. أما ترى أن أبا بكر قال في خطبة له : «وسترون بَعْدِي مُلْكَاً عَضُوضاً وَمَلِكاً عَنُوداً؟» والعنود قريب من العنيد، (وليس مثله)، لأن كليهما صفة ثابتة مؤكدة.. فيه من العناد أكثر مما في اسم الفاعل: عاندُ. بل أما ترى قول الله تعالى : ﴿وَلَيْكَ عَادٌ جَحْدٌ وَإِبْرَائِيمَ رَبِّهِمْ وَعَصَا رُسُلَهُ، وَأَتَّبِعُوا أَمْرًا كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

فالجبار لا يوصف بعاندٍ التي تقل فيه كمية العناد^(٢)، وإنما يوصف بعنيد. لأنها هي

(١) الحدُّ الفاصل بين صيغة المبالغة (ويمكن أن تُسميها صيغة تكثير أو توكيد وثبات وخاصة في القرآن) والصفة المشبهة (وهي الصفة الثابتة المؤكدة).. هو أن الأولى تأتي من الفعل المتعدى - غالبا- أما الثانية فتأتي من الفعل اللازم ولا تلتفت إلى أي استثناء لا يبين الفرق فيه واضحا بين المعنيين، والقياس نرى أن يكون لازما في الإعراب، لأن الحركة في الإعراب لها معنى خاص، فإذا تغيرت الحركة من غير أن يتغير العامل بطل المعنى الخاص، فبطلت قيمة وجود الحركة. وهذا.. مُنافٍ لطبيعة العربية (المعربة) - ونرى أن يكون لازما في معاني الصيغ الصرفية، لا في معاني الألفاظ، لأن الألفاظ، لكل اشتقاق منها معنى لغوي خاص. فإذا قلنا - مثلا: (أناقلتم) اختلف المعنى عن (تناقلتم). ولا تسد أي منهما مسد الأخرى، لأن (أناقلتم) فيها توكيد للتناقل أكثر من (تناقلتم). وليس كذلك معنى (الصيغة) الصرفية المطردة. فإذا قلنا : (صبور) كان فيها من المبالغة مثل الذي في (شكور). يبقى أن أقول: في القرآن لا تقول: (صيغة مبالغة) تأذبا معه، وإنما نقول: (صيغة توكيد) - لأن القرآن لا يُبالغ، وإنما القرآن (موزون) يضع كل شيء في موضعه، لأن إصلاح اللُغة يستدعي مدُّ القواعد والقياس على طول المادة المعالجة. ومع ذلك.. فنحن لا نخطئ الاستثناء بل يمكن أن يصبح قاعدة. وفي باب صيغة المبالغة، وهي توكيد- على الأصح- وباب صيغة الصفة المشبهة، وهي : صيغة توكيد وثبات - على الأصح - المعنى الإعرابي .. ليس فيصلا، في أمر صيغة المبالغة دائما، بل قد تأتي الصيغة من فعل متعد، ومع ذلك تكون - صفة مشبهة - أى : صفة مؤكدة ثابتة. هذا .. يعني أن الفيصل - أحيانا - المعنى، وليس دلالة فعل الصيغة - الإعرابية: (انظر: كتابي (الدرى النحوية-٤/٦٥-٧٠). فقد ثبت فيه هذا - الاصطلاح - الأخير.

(٢) كمية المعنى في «عنيد» أكثر منها في «عاند» تعنى أن الأول يدل على التوكيد، والثاني لا يدل على توكيد.

الصيغة التي تناسب الجبار على وزن «فَعَال» وهي صيغة صفة ثابتة مؤكدة. والجبار: المتكبر والقاهر العاتى المتسلط، فلا يصح أن يقال حتى في كلام البشر: كل جبار عاند. لأن الصيغتين تانفرتا في كمية المعنى. وقال تعالى كذلك: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِفَارٍ عَيْنٍ﴾ [٢٤]. فلم يقل الحق تعالى كل كافر.. لأن كمية المعنى في كافر أقل بكثير من كفار. ولم يقل: كافر، لأن كمية المعنى فيها أقل منها في كفار. إذن، الكلمتان المنسجمتان، إحداهما مع الأخرى، هما: كفارٌ وعنيدٌ أي: صيغة: فعَال وفعيل، وهما صفتان مؤكدتان ثابتتان. والشاعر العظيم المتنبي قال:

لولا المشقة ساد الناس كلُّهم
الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتالُ

فلم يقل: قاتل وإنما جاء بصيغة التوكيد: (قتال) على وزن: فعَال، لأنه أراد أن يؤكد المعنى الذي ورد في بيته. قد يُقال: إن وزن الشعر ألجأه إلى ذلك. فنقول: إن الشعراء الكبار لا يُعجزهم الوزن، فهم قادرون على التصرف بحيث ينسجم المعنى مع الوزن. إن المعنى شيءٌ مهمٌ عند الشعراء الكبار، ولذلك يندر أن يُفْرط أحدهم فيه من أجل الوزن. فالانسجام تامٌ بين المعنى والوزن - كلها تنبثق معا.

ونقول: لكأن ابن منظور عندما قال في اللسان: «عنيدٌ: عاندٌ» إنما أراد إلى جانب التوسُّع في المعنى التوضيح أي: إن عنيدا مشتقةٌ من عاند فأصل المعنى في عاند. ولكن توكيد المعنى جاء بصيغة عنيد. وعاند مشتقةٌ من الفعل «عَنَدَ».

٢ - ثم قال اللسان: «العنود والعنيد بمعنى».

وأنا أرى أن اللغة لم تأت بكلمتين لمعنى واحد. كما عرفنا في صيغتي عاند وعنيد السابقتين.. ولكن تأتى اللغة بمعنيين أو أكثر لكلمة واحدة. لأن المعاني غير متناهية. أما اللغة فمتناهية. فمن حكمة الخالق التي وضعها في العريبيَّة (وفي غيرها) أو في صدور الناطقين بها أن المتناهي (اللغة) لا يقبل أبدا التعدد للمعنى الواحد. أما غير المتناهي (المعاني) فإنه يقبل أن يتعدد للكلمة الواحدة، ليكون للكلمة الواحدة عدةٌ معانٍ. لأن الكلمة تتطور معانيها بين عصر وعصر. أما كانت الصلاة في الجاهلية تعنى مطلق الدعاء ثم أصبحت في الإسلام، تعنى عند الإطلاق هذه الصلاة المفروضة على المسلم؛ هذه الحركات وقراءة القرآن والأدعية التي يقصدُ بها المسلم عبادة ربه، طاعة له لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. لم يمت معناها الأول وإنما تراجع أمام المعنى الثاني.

أما ترى كذلك أن - الحاجب - فى الجاهلية كان يعنى العظم الذى فوق العين بما عليه من لحم. وهو أيضا: الشعر النابت على لحم هذا العظم. ثم أصبح يعنى فى العصر العباسى (إضافة إلى المعنيين السابقين) الرجل الذى يتولى أمر المراجعين ليدخل بعضهم إلى الخليفة ويصرف بعضهم الآخر؟ أما ترى كذلك أن لفظة: المأذون كانت تعنى الشخص الذى يسمح له بالدخول أو الخروج أو القيام بعمل ما. ثم.. أصبحت (إلى جانب المعنى الأول) الشيخ الذى يُوثَّق عقود الزواج؟ هذا معنى محدث جدّ وأدخله المعجم الوسيط الى موادّه.

- هذا تطورٌ لغويٌّ لا بدّ منه، لكى تواكب اللّغة التطور وتستجيب للمعانى الحديثة. ولا شكّ أنّ الاشتقاق قانون آخر من قوانين التطور اللغوى. لم يكن العرب يستعملون كلمة «حاسوب» مثلا، لأنه لم يكن قد جدّ عندهم معنى يستدعى مثل هذا الاشتقاق من الفعل «حَسَبَ». ولكن عندما اخترع ال (Computer) وجاء الى بلادنا كان الأولى ألا نُقبِّه على اسمه الأجنبى (= الانجليزى) وإنما نشقّق له اسما من لغتنا، وكان الاشتقاق موفّقا.

- إذن.. عنود ليست بمعنى عنيد. والدليل الأول على ذلك أن لسان العرب يقول: العنود الناقة التى لا تخالط الإبل، ولا تزال منفردة عنها، تبحث عن أجود المراعى. والعنود يُطلق على ذكر الإبل كذلك الذى لا يخالط الإبل، بحثا عن أجود المراعى. فالعنود.. تطلق على المذكر والمؤنث من الإبل. وقد تطلق على الرجل والمرأة من باب المجاز؛ فالرجل العنود هو الذى يلتزم العزلة ولا يخالط الناس، والمرأة العنود هى التى لا تخالط الرجال ولا تندفع لمخالطة النساء. والدليل الثانى - أن القرآن الكريم استعمل كلمة (عنيد) أربع مرّات، ولم يستعمل (عنودا) ولا مرّة واحدة. فلو كانت الكلمتان بنفس المعنى^(١) لاستعملها مرة أو مرتين مثلا. أما عنيد، فمعناها: المعارض ذو المعارضة الشديدة. وقد وضع هذا المعنى فى قول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا كَانَ لَابِتْنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦] أى: جاحدا ومعارضاً.

- طبعاً، هذا.. لا يعنى أنه ليس من لقاء فى أصل المعنى بين عنيد وعاند، وبين عنيد وعنود. فأصل معنى مادة «عَنَدَ» تَجَبَّرَ وَخَالَفَ وَعَارَضَ. وكلها ترجع الى معنى واحد: فالمتجبر لا شكّ أنه مخالفٌ ومعارضٌ. والمخالفٌ معارضٌ. ولم يُطلق على المتجبر

(١) بعض اللغويين يخطئون عبارة «نفس المعنى» أو نفس الكلمة ويرون أن الصحيح هو: المعنى نفسه أو الكلمة نفسها. والصواب أنها جائزة فقد ورد مثلها فى (الكتاب) عند سيبويه (الكتاب: ٣ / ٣٥٢) وورد فى (لسان العرب): نفس الجبيل مُقابلى.

هذه الصفة إلا لأنه يتمسك برأيه ويحمل الآخرين على قبوله، وفي ذلك رفض ومخالفة لآرائهم.

- إن هذا المعنى يشير إلى أن كل المشتقات المتولدة من الفعل «عَدَّ» كلها تلتقي في أصل المعنى.. ثم يكون لكل مشتق معنى خاص به، ومن أمثلة ذلك:

(أ) تعاند الخصمان: تجادلا. والمجادلة تتضمن معنى المعارضة لأن كلاً من المتجادلين يعارض خصمه راغبا في التفوق عليه. ولن يكون تفوق بلا معارضة ومخالفة. ولعله يلمح معنى التجبر كذلك.. لأن المجادل يحاول أن يستطيل على خصمه. والاستطالة لا تخلو من تجبر. والخصمان كل منهما يعمل على مخالفة خصمه والاستطالة عليه قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيََّ وَقَدْ أَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ [ق: ٢٨] أي: لا يُعارض بعضكم بعضا، كل منكم يُلقى المسؤولية على الآخر.

(ب) العاند: البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد. وهذا يعني أنه بجوره عن الطريق يعارض الطريق ويخالفها، ويمشى مع ما لم يكن ممهدا من الأرض.

(ج) وعندت الطعنة: إذا سال دمعها بعيدا من صاحبها. وسيلان الدم بعيدا عن صاحبه إنما هو مخالفة لصاحبه الذي يتمنى ألا تسيل منه قطرة واحدة. إنه يخرج على رغبة صاحبه أي: يعارضها.

(د) وعائدة الطريق: ما عدل عنه فعند. أنشد ابن الأعرابي:

فإنك والبكاء بعد ابن عمرو لكالساري بعائدة الطريق

يقول اللسان: (رُزئت عظيما فبكاؤك على هالك بعده ضلال. أي: لا ينبغي لك أن تبكى على أحدٍ بعده). وما عدل عن الطريق من المسارب إنما اعوج عن الطريق. وما اعوج عن الطريق فقد خالف الطريق وعارضه.

(هـ) وقال ابن الأعرابي «عاند فلان فلانا: فعَلَ مِثْلَ فعله. والذي يفعل مثل فعلك إنما هو يحاول أن يضاھيك. وكأنه بذلك يريد ان يكسب الصنعة - مثلا - منك. ولا شك أن الذي يقلد شخصا ينطوى على مفارقتة أو مخالفتة. وذلك عن طريق مضاهاته أو الاستقلال عنه بعد ان يتقن الصنعة. أما ترى أن كل كاتب أو شاعر يبدأ بتقليد كاتب كبير أو شاعر كبير، ثم بعد أن يتمرس يستقل عنه أي: يخالفه أي: يعانده؟ بل أما ترى أن النقاد سموا القصيدة التي يحاول صاحبها أن يأتي بها على غيرار قصيدة أخرى في الوزن والقافية، مع اختلاف المعنى

(أى: مع معارضة معناها للقصيدة الأقدم) سَمَّوْها (القصيدة المعارضة) وأطلقوا على القصائد التي تأتي في هذا الباب (المعارضات) والمصدر: معارضة: وجمعه: مُعارضاتٌ؛ ومن هذا النوع من القصائد سينية شوقي التي مطلعها:

اختلاف النهار والليل يُنسي
اذكرا لي الصِّبا وأيامُ أنسى
فقد عارض بها سينية البُحترِي التي مطلعها:

صنّتُ نفسي عما يُدُنُّسُ نفسي
وَتَرَفَعْتُ عن جَدَا كُلِّ جُبْسٍ^(١)
فقافية قصيدة شوقي هي السين كقافية قصيدة البحتري. ووزنها كوزنها. فهو: فاعلاتن مستعلن فاعلاتن. وهي تفعيلات البحر الخفيف. ولكن الموضوع مختلف من حيث المكان الذى وصف؛ فالبحتري وصف إيوان كسرى وشوقي وصف المسلمين فى الأندلس، كقصور قرطبة وقصور الحمراء. والجامع بين الإيوان والقصور هو خُلُوقها من ساكنيها واقترابها من أن تكون أطلالا؛ الموضوع العام واحد، ولكن «صورة» كل من الموضوعين مستقلة عن الأخرى أى: معارضة لها.

(وس) يقول لسان العرب: «ويقال: عاند فلان فلانا أى: يفعل مثل فعله، وهو يعارضة ويباريه» قال: والعامّة يفسرونه.. يعانده يفعل خلاف فعله. قال الأزهري: «ولا أعرف ذلك ولا أثبته».

- وأقول: يحسُن أن أشير - أولا - إلى أن العامّة ليسوا.. العوامَ وحدهم. وإنما هم جمهور الناس من كُتاب وأدباء وعوام. وعامّة - بهذا - شبيهة بكافية - بل حتى اذا نظرنا الى العامّة أنهم جمهور الناس، مُستثنى منهم الكتاب والأدباء. فإنهم يمتلكون سليقة لغوية خفية. إن معظم كلمات العامّة أى: اللهجات العامية إنما هي من الفُصحى مع سقوط حركات الإعراب فإذا صحَّح اللغوى لفظ بعض الحروف المبتعد عن الفُصحى كلفظ الكاف (تشاف) فى مثل الكاف فى «لك: إذ يلفظ كلفظ (ch) من كلمة (chair) فى اللّغة الانجليزية..

- إذا صحَّح ذلك.. أصبحت الألفاظ العامية فصيحةً بنسبة تسعين بالمئة تقريبا^(٢).

(١) الجَدَا: العطاء، يعطيه الخليفة أو الأمير إلى السائلين من شعراء وغيرهم. والجيس: الثقل الجافى الغليظ.

(٢) ومثّل الألفاظ التراكيب.. فَيُصَفُ التراكيب تقريبا مُماثلة لما فى الفُصحى.. لأن أصل العامية من الفُصحى أى: من اللهجات العربية الفصيحة. أما نصفها الآخر فمفارق للفصحى.. لأن العامية سقطت منها=

لأن العامة (وحتى العوام) لا يستعلمون الألفاظ لغير معانيها في الفصحى إلا من باب التطور في الدلالة والاشتقاق الذي سنعرض له تاليا.

(ن) إن سليقة اللغة متمكنة من نفوس العامة (أو الجمهور) لأنهم يتلقونها من المهد إلى اللحد، وذلك بتلقيهم العامية أولا القريبة من الفصحى، كما أسلفنا. ثم العامية والفصحى في وقت واحد معا. ولذلك.. فهم قادرون على تطوير اللغة (واللغة التي لا تتطور تموت) في الألفاظ عن طريق الاشتقاق، وفي المعاني عن طريق تطوُّر الدلالة:

- فمن تطويرهم للألفاظ مثلا أن الفعل «فَتَفَت» موجود في المعجم. ولكن الاسم المشتق منه غير موجود. ولكن العامة اشتقته وهو «فتفتوتة» وجمعه «فتافيت». وهما اشتقاقان (المفرد، والجمع) لا غبار عليهما، ويجدر إلحاقهما بمفردات المعجم الفصيح. ثم اشتقوا من الفعل

=الحركات، والحركات لها أهمية كبيرة في نوعية التركيب. مثلا في الفصحى قال القرآن الكريم: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ قَالُوا آمَنُوا وَإِشْرَاطُ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 132]. وذلك بضم آخر إبراهيم، وآخر يعقوب-عليهما السلام- والضم! دلنا على أن إبراهيم ويعقوب قد وصيا بها (أى: بكلمة الإسلام) بنبيهما. عرفنا ذلك.. لأن «يعقوب» جاءت مرفوعة كإبراهيم. فهي فاعل مرفوع بالضم الظاهر على آخره كما أن إبراهيم فاعل مرفوع بالضم الظاهرة على آخرها. ولولا الحركات (حركة الضم هنا) لاعتبرنا أن إبراهيم وصى بنيه بكلمة الإسلام ووصى أيضا يعقوب بها، لأن كلمة يعقوب جاءت بعد المفعول (بنيه).

ولذلك فالعامية.. لا يستطيعون أن يوردوا هذا المعنى إلا بإحدى طريقتين: الأول- أن يقولوا: ووصى إبراهيم بها بنيه، وكذلك وصى يعقوب بها بنيه. والثانية- أن يقولوا: ووصى إبراهيم ويعقوب بها بنبيهما. والطريقة الأولى فيها وضوح، ولكن فيها تطويلا. فهي أطول من عبارة القرآن. ولا شك أن البلاغة في الإيجاز إذا تساوى التعبيران في أداء المعنى. وتعبير القرآن أوجز بكثير من تعبير العامة، فالبلاغة كامنة به لا بتعبير العامة. أما الطريقة الثانية فقد خلطت بين الأهم والمهم، أى: جمعت بين إبراهيم ويعقوب متتالين لا يفصل بينهما إلا حرف العطف. ومن حق تمام المعنى أن يُباعَدَ بينهما.. فيأتى إبراهيم في أول العبارة. ويأتى يعقوب في آخرها، بعد أن يكتمل المعنى. وسبب هذا الفصل أن إبراهيم هو أبو الأنبياء، فيعقوب لا يساويه في مرتبة النبوة. أما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ اتَّقَاةِ لَهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [البقرة: 197]. يضاف إلى ذلك أن يعقوب حفيد إبراهيم. ومن حق الجد أن يتقدم على حفيده. أما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويرفق كبيرنا»؟.

واضح من هذا أن عبارة القرآن أوجز وأوضح من تينك العبارتين اللتين اقترحناهما. وواضح من هذا أيضا لماذا يضطر العامة أن يفارقوا بتراكيبهم تراكيب الفصحى في نصفها تقريبا ذلك لسقوط حركات الإعراب عندهم. ولعله قد وضح من ذلك أيضا أن لحركات الإعراب قيمة كبيرة في اختصار التعبير وتوضيح المعنى. (ملاحظة: إبراهيم وحفيده يعقوب ممنوعان من الصرف، بسبب العِلْمِيَّةِ والعُجْمَةِ). ملاحظة: ورد مثل هذا الكلام سابقا.

«حَرْفٌ».. فعلا آخر هو «حَرْفَنٌ». ومعنى حَرْفَ الرجل: فسَدَ عقله من الكِبَرِ. وحرفن: فسَدَ عقله من الكبر كذلك، ولكن بصورة أكبر بحيث لم يُعَدَّ يعي شيئاً. فالرجل الحَرْف عند العامة هو الذى فسَدَ عقله مع بقية، أما الرجل المُحْرَفُ فهو الذى فسَدَ عقله فساداً تاماً. والعامة بهذا تجرى على قواعد الصرف فى العربية. أما قالوا قديماً: «سَرَجَنٌ» من السَّرَجين وهو ما تُسَمِّدُ به الأرض. فَسَرَجَنَ الأرضَ سَمَدَهَا بالسرجين، وهو نوع من الزُّبَلِ؟ وقالوا أيضاً من: رجل أزرَقَ رجل «زُرُقُم». قال الأصمعى: «ومما زادوا فيه الميم: زُرُقُمٌ للرجل الأزرق الشديد الزُّرْقَةُ». أقول: فالميم زائدة لزيادة فى المعنى، لأن القاعدة المشهورة فى فقه اللغة تقول: «كلُّ زيادة فى المبنى تدل على تغيير أو زيادة فى المعنى». والعكس صحيح: «فكل زيادة فى المعنى تستدعى زيادة فى المبنى» أما ترى أن «حُسباناً» التى آخرها الألف وزيدت فيها النون على كلمة «حساب».. تُعطى معنى زائداً على ما فى: حساب. فهى تعنى الحساب الدقيق دقةً كاملةً. ولهذا قال الله تعالى: ﴿الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥] ولم يقل: بحساب لأن الحساب أقل دقةً من الحُسبان. ولا يصلح للشمس والقمر إلا الحساب الدقيق دقةً متناهية فلو انخفضت الشمس عن مسارها لاحتترقت الأرض ومن عليها وما عليها. ولو ارتفعت عن مسارها لتجمدت الأرض ومن عليها وما عليها كذلك.

– إذن.. زيادة المبنى فى حَرْفَنٌ دلت على معنىٍ إضافيٍّ. وكذلك: زُرُقُمٌ. وأنا أرى أنه يمكن أن نشقُّ من الأخيرة فعلاً فنقول: زَرَقَمَ أى: اشتدَّتْ زُرُقَتُهُ لأن العرب اشتقوا من الفعل ومن المصدر ومن اسم الذات ومن الاسم الجامد ومن الضمائر بل ومن الحروف. أما قالوا حديث مُعنعن، وعنعن الحديد ومشتقاتٍ أخرى؟ وذلك للحديث الذى يرويه الراوى بصيغة: عن فلان عن فلان.. الخ.

– وفى رأىي أن هذه الإضافة التى أضافتها العامة للفعل حَرْفٌ.. قياساً على استعمال العرب للفعل: «سَرَجَنٌ» أو للصفة «زُرُقُمٌ».. مهمة جداً ويجب أن تستخدم مع بعض الأفعال والأسماء، فنقول: حَدَّثَنُ الآلاتِ بَدَلُ: حَدَّثَهَا. لأن: حَدَّثَ توحى أوَّل ما توحى بالحديث أى – الكلام –، وليس بتحويل الآلات إلى وضع حديث^(١). ونقول: عَصَرَنُ الأشياءَ عَصْرَنَةً.. وذلك بتحويل الأشياء إلى وضع عَصْرَى. لأن عَصَرَ الأشياءَ، بالتخفيف، وَعَصَرَ الأشياءَ بالتشديد.. لا تدلان على معنى تحوُّل الأشياء إلى صورة

(١) صحيح أن بعض الكلمات فى العربية تحمل معنيين أو أكثر.. ولكن الوضوح التام يستدعى أن يكون لكل كلمة معنى خاص بها، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. لأن العقل واللغة يندشان الوضوح. وفيها بضعة قوانين يجب أن تراعى: الوضوح ثم التيسير ثم الخفة ثم الانسجام، ثم.. المشاكلة.

عَصْرِيَّةٌ إِذْ أَنْ مَعْنَى: عَصَرَ الْعِنَبَ وَنَحْوَهُ: أَخْرَجَ مَا فِيهِ مِنْ سَائِلٍ أَوْ شَرَابٍ: وَمَعْنَى: عَصَرَ: بِالْعَصْرِ فِي الْعَصْرِ. وَعَصَرَ الزَّرْعُ: نَبَتَتْ أَكْمَامُ سُنْبُلِهِ. وَهِيَ بَعِيدَانِ عَنْ مَعْنَى الْعَصْرَةِ. وَلَكِنَّ الْعَصْرَ هُوَ الدَّهْرُ أَوْ مَا يَسْبِقُ الْمَغْرِبَ مِنَ الْوَقْتِ. وَهَذَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْتَقَّ مِنْهُ مَعْنَى جَدِيدِ هُوَ الزَّمَنُ الْحَاضِرُ. كَأَنَّ يُقَالُ: هَذَا اللَّبَاسُ عَصْرِيٌّ، وَهَذَا جُبَّةٌ عَصْرِيَّةٌ. وَلَكِنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ.. صَفَتَانِ وَلَيْسَتَا مُصَدِرَيْنِ كَالْعَصْرَةِ. ثُمَّ هُنَاكَ الْفِعْلُ: عَاَصَرَ. بِمَعْنَى عَاشَ فِي الْعَصْرِ نَفْسَهُ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ. وَلِذَلِكَ يُقَالُ: شَاعِرٌ مُعَاَصِرٌ وَكَاتِبٌ مُعَاَصِرٌ.. وَلَكِنَّهُ لَا يَسُدُّ مَسَدَ الْمَصْدَرِ: الْعَصْرَةِ. وَمِثْلُ الْعَصْرَةِ.. الْحَدِيثَةُ فَالْتَحْدِيثُ لَا يُغْنِي عَنْهَا وَلَا يُوْحِي بِظِلَالِهَا.

- وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنْ نَسْتَحْدِثُ مَعْنَى لِكُلِّ فِعْلٍ بِتَحْوِيلِهِ إِلَى فِعْلِ رَبَاعِيٍّ عَنْ طَرِيقِ إِضَافَةِ نُونٍ أَوْ مِيمٍ فِي آخِرِهِ. لِأَنَّ ذَلِكَ كَالنَّحْتِ: يَسْتَعْمَلُ نَادِرًا عِنْدَمَا تُعْبَى الْمُتَكَلِّمُ أَوْ اللَّغْوِيُّ وَسَائِلُ الْإِشْتِقَاقِ الْآخَرَى. لِأَنَّ النَّحْتَ هُوَ تَكْوِينُ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ كَلِمَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ. وَذَلِكَ قَدْ يَقُودُ إِلَى غَمُوضٍ فِي غَيْرِ الْكَلِمَاتِ الْكَثِيرَةِ التَّكَرُّارِ، لِأَنَّ التَّكَرُّارَ يَزِيلُ الْغَمُوضَ، وَاللُّغَةَ تَنْفِرُ مِنَ الْغَمُوضِ. وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِشْتِقَاقِ لَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا بِشَرَطَيْنِ: الْأَوَّلُ - أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا فِي الذَّوْقِ الَّذِي تَطْبَعُهُ اللُّغَةُ فِي نَفْسٍ مِنْ يَمَارَسَهَا أَوْ فِي نَفُوسِ الْأَدْبَاءِ - بِالدرجَةِ الْأُولَى. وَالثَّانِي - أَنْ يَسْتَجِدَّ مَعْنَى لَا يُؤَدِّيهِ الْفِعْلُ. خَالِيًا مِنَ النُّونِ أَوْ مِنَ الْمِيمِ.

- مَا سَبَقَ هُوَ تَطْوِيرٌ لِلْأَلْفَافِ بِالْإِشْتِقَاقِ. أَمَا التَّطْوِيرُ عَنْ طَرِيقِ الْمَعَانِي فَمَنْ أَمَثَلْتَهُ: كَلِمَةُ «الْفَانُوسِ».. فَعِنَاهَا الْأَصْلِيُّ: الرَّجُلُ النَّمَامُ. أَمَا مَعْنَاهَا الْحَدِيثُ الَّذِي التَّقَطُّهُ الْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْعَامَّةِ: فَهُوَ: مِشْكَاءٌ مُسْتَقَلَّةٌ، جَوَانِبُهَا مِنَ الزَّجَاجِ، يُوَضَعُ فِيهَا الْمَصْبَاحُ لِيقْبِيَهُ مِنَ الْهَوَاءِ أَوْ الْكَسْرِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ «عِلَاقَةٌ» كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ تَطَوُّرِ الْمَعَانِي لِلْأَلْفَافِ. فَالرَّجُلُ النَّمَامُ يَكْشِفُ أَخْبَارَ النَّاسِ الْمُسْتَوْرَةَ، وَالْمَصْبَاحُ يَكْشِفُ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ فَالْإِنْكَشَافُ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ وَطَبِيعًا.. لَا تَنْتَقِلُ كَلِمَةٌ مِنْ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ (عِلَاقَةٌ) مَا..

وَكَلِمَةُ «نَخْطَا» فِي قَوْلِنَا: جَاءَ الْكَاتِبُ بِفِكْرَةٍ.. نَخْطَا مِنْ رَأْسِهِ أَى: ابْتَكَّرَهَا دُونَ سَابِقٍ مِثَالٍ. فَهَذَا مَعْنَى طَوْرَتِهِ الْعَامَّةِ لَهَا. أَمَا مَعْنَاهَا فِي الْمَعْجَمِ فَهُوَ نَخْطُ إِلَى الْقَوْمِ نَخْطَا: خَرَجَ عَلَيْهِمْ فَجْأَةً. وَالفِكْرَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مِثَالٌ سَابِقٌ لَهَا مَعْنَى الْمَفْاجَأَةِ، لِأَنَّهَا تُفَاجِئُ صَاحِبَهَا نَفْسَهُ، وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.. تُفَاجِئُ الْقَارِئَ.. فَالْمَفْاجَأَةُ.. مَلْحُوظَةٌ فِي الْمَعْنَيْنِ.

- وَمِثْلُ هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ رِبْطُهَا الْإِسْتِعْمَالُ بِالْأَلْفَافِ لِكُلِّ مَعْنَى قَدِيمٍ أَوْ

معانٍ قديمةً ، معظمها بقيت معانيها القديمة إلى جانب المعنى الحديث. ولكن أول من أطلق المعانِي الحديثة على هذه الألفاظ.. غير معروف ، فهي توليد جماهيري كالتقصص الشعبية والملاحم البابلية منها واليونانية أو التي وجدت عند شعوب أخرى.. فقائلها الأول مجهول غالباً.

٣ - بَعْدَ هذه الجولة مع تطور الدلالة من حيث الاشتقاق والمعاني.. نعود إلى قول الأزهري عن «عاندَ»: قال ابن الأعرابي: «والعامّة يُفسّرونه.. يعاندهُ: يفعل خلاف فعلِهِ» قال الأزهري: «ولا أعرف ذلك ولا أثبتُهُ».

- ونقول: إنَّ «خَالَفَ» هو أصلُ معنى عاندَ. لأن المعاند هو المتجبر والمخالف والمعارض. وقد سبق أن بيّنا أن بين هذه الألفاظ الثلاث مشتركة في المعنى. ولذلك فإنكار الأزهري لهذا المعنى هو نوع من مواقف كثير من أصحاب المعاجم الذين هم يعرفون اللّغة ، ولكنهم ليسوا فقهاء فيها. ولا ريب أن عثمان بن جنّي في كتابه «خصائص العربيّة» أفقهُ في اللّغة من معظم أصحاب المعاجم. وإلا.. فكيف يقول الأزهري (صاحب معجم تهذيب اللّغة): لا أعرف ذلك ولا أثبتته. أما يعرف أن الألفاظ تتطور معانيها فتكسب معاني جديدةً يطرحها الاستعمال وتجدّد حياة الناس؟ بل أما يعرف أن الكلمة تكتسب معاني جديدةً مبرّرها الوحيد أن لها «علاقة» ما.. مع المعنى الأصلي للكلمة.. وعاند وخالف بينهما اشتراك في المعنى.

- إن مشكلة علماء اللّغة في العصور المختلفة أنهم قلّمَا يعترفون بالاشتقاقات الجديدة التي لم تكن موجودة في المعاجم. وقلّمَا يعترفون بالمعاني الجديدة التي يطرحها الواقع والاستعمال من خلال الاشتقاق أو إضافة معنى جديد للفظ قديمة.

- وذلك.. قاد إلى نتيجة خطيرة جداً: فلم تنمُ اللّغة الفصحى نمواً كافياً بحيث تستجيب لما يطرحه العصر الحاضر من معانٍ وأسماءٍ صناعاتٍ وأدواتٍ وأسماءٍ أدويةٍ وأمراضٍ. تتدفّق على ذاكرة العالم كلُّ يوم بالعشرات.

- ثم.. أصبح هناك حاجز بين اللّغة وبين أبنائها، بحيث أصبح المثقف يحسُّ أن بينه وبين لغته جفوةً مما يدفعه إلى أن يتعلم الإنجليزية ويَترنّب بها. لا لأن الإنجليزية أسهل من العربيّة، فالعربيّة أسهل من الإنجليزية وأرقى ، بل لأن علماء اللّغة لا يتساهلون فيما يعدونه خطأً، وهو في معظمه ليس خطأً، وإنما هو نوعٌ من التطوُّر الذي إذا لم تمارسه اللّغة تقوّعت وانكسحت، ولم يُعدّ - لها وجود معقول في حياة الناس والمثقفين خاصة.

لقد قرأت كتاب (معجم الأغلط اللغوية المعاصرة) للأستاذ المرحوم محمد العدناني. ولا أبالغ إذا قلت: إن أكثر من نصف ما خطأهُ هو صواب يمكن بالنظر اللطيف رُدُّهُ إلى التطور المتماشى مع قوانين تطور اللغة العربية بل اللغات عامة.

وختاماً: فإن من عوامل تطور اللغة العربية، إضافة دلالات جديدة للألفاظ القديمة، ولكن لا بد من أن يكون هناك «علاقة» بين المعنى القديم والمعنى الجديد. لأن اللغة لا تتقبل ألفاظها المعاني عشوائياً، وإنما تتلقاها بحساب دقيق عن طريق إلهام الناطقين بها ذلك أو طريق الفطرة السليمة، وأن من عوامل التطور الاشتقاق بحيث تتولد ألفاظ جديدة لكثير من المعاني الجديدة (التي لم تستوعبها الألفاظ القديمة). ولا بد من أن يكون هناك «علاقة» بين المعاني المختلفة لهذه المشتقات - كما عرفنا في مادة «عند» التي عرضنا لها في الصفحات السابقة - فتشترك هذه المشتقات بالمعنى «المركزي» أو الأصلي، ثم يستقل كل مشتق بمعناه الخاص به.

- إن تطوّر اللغة (كل لغة) سرٌّ عجيب يمارسه أهلها بصورة أقرب إلى «الإلهام» سواءً أكانوا متعلّمين أم غير متعلّمين. والأصحُّ.. أن الفئتين تتكاتفان على إبداعه أما أصل اللغة العربية الفصحى فهو (إلهام) - كما بسطنا معظم أدلته في الفصل الأول - من هذا الكتاب..

الموضوع الخامس

المُقلَّة وتطوُّرها اللُّغويُّ

الأصل في المُقلَّة: شحمة العين التي تجمع السواد والبياض وقد اشتقَّ من المُقلَّة المصدر وهو المقلُّ أى: النظر إلى الشيء، لأن النظر إلى الشيء يأتي عن طريق النظر بالمُقلَّة. وقد اشتقَّ من المقلِّ.. الفعل: مَقَلَّ. بل قد يكون الفعل قد اشتقَّ أولاً ثم جاء منه المصدر فالاشتقاق تأتي من كل صنوف الكلمات في اللغة، وليس من المصدر والفعل وحدهما - وإن كان الاشتقاق منهما - أكثر.

لقد قال البصريُّون: لا يجوز الاشتقاق إلا من المصدر. وقد أوردوا لذلك أسباباً.. أهمها أن المصدر لفظ معنويُّ والمعنويُّ مُقدَّم على الفعل، لأن الفعل ليس شيئاً معنوياً بل .. حَدَث وزمن. ولأن المصدر حدثٌ من غير زمن أما الفعل. والمعنويُّ أُسْبِق في الوجود من الماديِّ، والحدث دون زمن مُقدَّم على الحدث مع الزمن، لأن البسيط مُقدَّم على المركَّب. فالمصدر مقدم على الفعل - فالاشتقاق منه.

- ولكن الكوفيين رأوا أنَّ الفعل هو الأصل والمصدر مشتقُّ منه، لأن اللغات في بدئ تكويناها تنتقل من المادي إلى المعنوي، واللغات كالأُم التي تدرك في بدئ تطورها المحسوس (المادي) قبل المعنويُّ الذي يأتي متأخراً في تطور الأُم، لأن الذي يكون نامياً عند الإنسان في بداية الحياة إنما هو الحواسُّ وليس العقلَ ولأن اللغة هي نتاج تطور الإنسان - ما عدا العربية. بيد أننا نجد أنَّ اللُّغة في تطورها لم تُؤيِّد رأيَ البصريين وإنما أيدت رأيَ الكوفيين إلى حدِّ ما. لأن الفعل يسبق المصدر.. غالباً، مثل كلمة: كَتَبَ، فقد سبقت المصدر: كَتَبُ أو كتابةً لأن الفعل حَدَثُ، والحدثُ غالباً محسوسٌ وحياة الإنسان بدأت بالمحسوس - بشكل عامٍّ - قبل المعنوي (المجرد).

- بل إن اللُّغة، في تطورها تجاوزت رأيَ البصريين ورأيَ الكوفيين معاً لأن الفريقين كانا يعتمدان على فذلِكَات ذهنية - وخاصَّةً البصريين منهم - لا تقوم على وعى لطبيعية اللُّغة، وتدقيق في واقع اللُّغة، فكما اشتقَّ من الفعل.. اشتقَّ من اسم الذات فالمصدر

«المَقْلُ» إنما اشتقَّ من اسم الذات «المُقَلَّة» أو أن الفعل «مَقَلَ» اشتقَّ من اسم الذات نفسه «المُقَلَّة» ثم المصدر «المَقْلُ» اشتقَّ من الفعل مَقَلَ.

— بل لقد اشتقَّ العرب من الحروف ومن الضمائر ومن الأسماء الجامدة ومن أسماء الأصوات ومن الأعيان (الجواهر أو الذوات) وقد عرضنا لهذا . سابقا.

— بل لقد اشتقَّ الناس من الفعل: مَقَلَ فعلا خُماسيا هو: تمَقَلَ، وهو من المُقَلَّة أيضا. والفرق بينه وبين الفعل الثُلَاثِيَّ أن فيه تأكيدا على النَّظَر إلى الشيء أكثر من الفعل الثُلَاثِيَّ، فتمَقَلَ تعنى: دَقَّقَ النَّظَرَ إلى الشيء. ومَسَوَّغٌ وجود أي لفظة جديدة هو أنها تُعبِّر عن معنى جديد. لأن من صفات اللُّغة الراقية أنها تستجيب لكل المعانى. بأحد قوانين تطوُّر اللُّغة ونموها التي عرضنا لها خلال هنا الكتاب.

بقي أن أقول: إن الفعل: «تمَقَلَ» ليس موجوداً في المعجم، وإنما هو اشتقاق حادث يجدر أن يُضاف إلى المعجم. كما تفعل الأمم المتحضرة التي تضيف إلى المعجم ما يستجد من ألفاظ كلِّ سنة. بل كما فعل أجدادنا في عصور الازدهار الذين أضافوا آلاف الألفاظ إلى المعاجم.

الموضوع السادس

تحقيق لفظ كلمة (أبيئها)

فى سنة ألف وتسعمائة وثلاث وستين كنت طالبا فى مرحلة الإجازة فى اللغة العربية فى جامعة دمشق. وقد درس لنا أحد أساتذتنا وهو الدكتور شكرى فيصل يرحمه الله، قصيدة النابغة الذبياني المعلقة التى مطلعها:

يا دارَ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسُّنْدِ أَقْوَتَ وطالَ عليها سالفُ الأُمْدِ^(١)

وقد قرأها لنا بصوته الحنون، وقد قرأ البيت الرابع فى القصيدة على النحو التالى:

إِلا الأوارِيَّ لَأَيًّا - ما- (أبيئها) والنُّؤْيِ كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلْدِ^(٢)

- وكلمة (أبيئها) تُقرأ بفتح الهمزة والياء والياء المشددة وضمّ النون، ولكن قرأها (أبيئها) بضمّ الهمزة وفتح الباء وكسر الياء المشددة وضمّ النون. وهذه القراءة «خاطئة» فى نظرى. لأن معنى (أبيئها): أَوْضَحُها للناس. والشاعر لم يقصد ذلك، وإنما قصد أنه هو لا يستطيع أن يَتَّبِعَها. أى: إن أصل الكلمة: (لأيا ما أتبيئها). فحذف الشاعر تاء الفعل، فأصبحت (أبيئها) كما كتبناها آنفا.

- وهذا الحذف جائز فى اللغة: جائز أن تُحذف تاء الفعل الماضى، وأن يبقى حرف المضارعة، سواء أكان الهمزة (كما فى الحالة السابقة) أو التاء أو الياء أو النون، ويجمعها كلمة (نأتى). أما لماذا تُحذف تاء الفعل ولا يحذف حرف المضارعة؟ السبب أنه إذا حُذف

(١) العلياء والسُّنْدِ.. اسما مكانين كانت تسكن فيهما - مَيَّةٌ - حبيبة الشاعر.

- أَقْوَتَ: أفقرت وخلصت من أهلها.

- الأمد: الزمن، وسالف الأمد: الزمن الماضى.

(٢) الأوارِيَّ: جمع آري وهو حبل تربط به الدابة.

- لأيا: صعوبة ومشقة.

- ما أتبيئها: ما أتعرفها إلا بصعوبة.

- النُّؤْيِ: القناة التى تحفر حول بيت الشعر.

- المظلومة: الأرض التى يُحفر فيها النُّؤْيِ. وهى مظلومة لأنها قليلة الماء.

- الجلد: الأرض القوية الصلبة أو الحفرة المتماسكة البناء.

حرف المضارعة وهو - هنا- الهمزة (أ).. فإنه يُحذف بِحَذْفِهِ «معنى» وهو المضارعة أى: الدلالة على الزمن الحاضر كثيرا أو المستقبل قليلا. أما إذا حُذِف حرف التاء من الفعل الماضى.. فإنه يبقى بضعة أحرفٍ تدل على «الفعل». ففي حالة (تَبَيَّنَ) الواردة فى البيت تحذف التاء ويبقى أربعة أحرف هي (بَيَّنَ) التى تدل على تمام الكلمة فَحَذَفُ معنى كامل بحذف حرف المعنى (الهمزة) هو حذف لكلمة بهذا الحرف، لأنه ذو معنىً مستقل، وليس كذلك حذف التاء من الفعل السابق.

وَحَذَفُ حرف الفعل المضارع وارد فى الشعر وفى القرآن الكريم.. قال ذُرَيْدُ ابْنِ الصَّمَّةِ فى قصيدته الدالية التى منها البيت المشهور:

وهل أنا إلا من غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ، وَإِنْ تَرَشَّدُ غَرِيَّةٌ أَرُشِدُ

قال منها:

وكنتُ كَأْنَى واثقٌ بِمُصَدَّرٍ (يَمَشَى) بأكناف الجليبِ بِمَحْتَدٍ - (يَمَشَى) بفتح الياء والميم والشين المشددة.. أصلها هو: (يَتَمَشَى) بفتح الياء والتاء والميم والشين المشددة. وكلتا الكلمتين.. فعل مضارع، الأولى - حُذِفَتْ منهما تاءُ الفعل. والثانية - أُعيدت لها تاءُ الفعل.

وقد أوردها أحد الكتاب وهو الدكتور جميل علوش أحد الذين لهم المعرفة باللغة.. هذه الكلمة على صيغة (يُمَشَى) بضم الياء وفتح الميم وكسر الشين المشددة، وذلك فى معرض إنكاره لأهمية الشعر الجاهلى، وأنه (الشعر الجاهلى) - بزعمه - لا يخلو من أخطاء فى اللغة والوزن. وعلّق على هذه الكلمة بقوله: «فكلمة (يُمَشَى) هنا ضعيفة؛ إذ الأصل فيها أن تكون إذا ضُعُفَتْ.. متعدية. ولكنه استعملها.. لازمة». فقد اعتبرها الكاتب من الفعل الماضى (مَشَى) بفتح الميم والشين المشددة. فصحتُ له قراءته الخاطئة. وبيّنتُ أنها تُقرأ على النحو الذى أسلفتُ، وبذلك تكون لازمة وليست متعدية^(١). ومثلها من القرآن (وهو كثير) قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشَقُّوْا الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ﴿٤٤﴾ [ق: ٤٤]، ف (تشقُّ) بفتح التاء والشين والقاف المشددة الأولى، وضم القاف الأخيرة هى فعلٍ مضارع، الصيغة التامة منه عندما تُرَدُّ إليه تاء الفعل المحذوفة هى (تَتَشَقَّقُ) بفتح التاء الأولى والثانية

(١) مُصَدَّرٌ: حسان يسبق الخيل فيكون فى صدرها.

- أكناف: جوانب الشيء وأطرافه.

- الجليب ومحتد: موضعان.

والشين والقاف الأولى المشددة؛ وضَمَّ القاف الأخيرة. والفرق بين حذف تاء الفعل وبقاء حرف المضارعة بين القرآن وكلام البشر.. أنها تأتي في كلام البشر على الجواز أو لضرورة الوزن، كما وَضَحَ لنا من بيت النابغة، وبيت دُرَيْدٍ؛ فقد حُذِفَ حرف المضارعة جوازاً. وقد أخذنا بهذا الجواز لضرورة الوزن. فالوزن لا يستقيم في البيت الأول لو قال النابغة: (ما أَتَبَّيْنُهَا) بِرَدِّ التاء المحذوفة. ولا يستقيم في البيت الثاني لو قال دريد (يَتَمَشَّى) بِرَدِّ التاء المحذوفة.

أما في القرآن فالحذف يأتي «للوجوب» لسببين: الأول - أنه لا يجوز أن نُحِلَّ كلمة فيه محل أخرى.. وإن كان الفرق حذف حرف أو إضافة حرف. خلافاً لكلام البشر الذي يمكن أن يضاف إليه ويحذف منه، حتى في الشعر إذا استقام الوزن والمعنى. مثلاً في بيت المتنبي الذي لم يَرَضْ عنه النقاد لورود كلمة (تؤذى) فيه، وهو:

تَلَذُّ لَهُ الْمَرْءُ وَهِيَ (تُؤْذَى) وَمَنْ يَعْشَقُ يَلْذُّ لَهُ الْغَرَامُ

قال النقاد: «إن - تُؤْذَى - قلقة في موضعها، لأن صاحب المروءة لا يتأذى من فعل المروءة. أما سمعت قولهم: (يهتزُّ للذدى) والهزة نوع من الفرح أو السعادة أو اللانتهاء. في هذا البيت يمكننا أن نغير هذه اللفظة القلقة بلفظة أفضل منها.. كأن نقول: «تلذُّ له المروءة - لو تُنَجَّى -» (فلو تنجى) أفضل في هذا المكان من اللفظة التي أوردها الشاعر. ومعنى الشرطة هنا: «تلذُّ له المروءة لأنها تملؤه^(١) حبوراً، لكنها لا تنجى من القتل أو الموت.

أما قال الشاعر، يمدح معنا ابن زائدة:

فَلَوْ أَنَّ حَمْدًا أَخْلَدَ النَّاسَ لَمْ تَمُتْ وَلَكِنْ حَمْدُ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدٍ

السبب الثاني - أن هناك علة لاستعمال القرآن لأي كلمة سواء وردت كاملة أم حذفت منها حرف أو أضيف لها حرف. وههنا هنا حذف تاء الفعل الماضي (تَشَقَّقُ) بحيث أصبحت في المضارع (تَشَقَّقُ). هناك فرق بين (تَشَقَّقُ) بحذف التاء و(تَتَشَقَّقُ) بإثبات التاء. إن حذف أي حرف من الكلمة يجوز حذفه.. يجعل الكلمة أسهل لفظاً، ولذلك فقولنا: «سَلْ ما بدالك» أسهل من قولنا: «أَسأل ما بدالك» وعلى هذا (فتشَقَّقُ) بتاء واحدة أسهل لفظاً من (تَتَشَقَّقُ) بتائين. وهذه السهولة تُشير إلى سهولة تَفَطُّرِ الأرض عن الأموات عندما

(١) تملؤه.. يمكن أن تُكْتَبَ على صورة أخرى هي (تملاؤه). وكلا الإملاءين صحيح. فإذا كتبتها بالواو فقد غلبت صوت الحرف لأنه مضموم وواقع في داخل الكلمة. وفي مثل هذه الحالة يجوز أن تكتب على (الواو). وإذا كتبتها بألف فوقها همزة فقد غلبت أصل الكلمة وهي (تملاؤه) قبل أن تدخل عليها (ها).

يأمرها ربُّها يوم القيامة، لكي يخرجوا خروجاً سهلاً لا صعوبة فيه. ولذلك فهم يخرجون «سراعاً». إن سهولة تَقَطُّرِ الأرض يُسهِّل عليهم الخروج سراعاً! رأيت أن حذف التاء يُشير إلى معنى لا غنى عنه مما يجعل حذفها أمراً لا بد منه؛ مما يجعل حذفها «وجوبياً»؟ وإن «سراعاً» يناسبها السرعة في تشقق الأرض.

بقي أن أقول عن كلمة (أَبَيَّنُهَا) التي حذفنا منها تاء الفعل أني وجدتها في (لسان العرب) (وقد أورد بيت النابغة) على الصورة التي قرأها عليها أستاذنا. ولكن ذلك ليس خطأ من ابن بمنظور.. صاحب اللسان - غالباً. وإنما هو خطأ ممن (أعدَّ وصنَّف) (اللسان) في العصر الحاضر وهو الأستاذ يوسف خياط أو هو خطأ من الطابع.

- يبقى أن أشير إلى أن (سَلُّ ما بدا لك) وإن كانت سهلة .. فإنها لا تُفَضَّلُ دائماً على اللفظ الكامل، وهو (اسأل ما بدالك) لأن الكلمة أو العبارة تصحَّ في موقعها المناسب ولا تصحَّ في غيره، والله المَنَّان وهو القويُّ المُستعان.

انتهى القسم الثالث، بعون الله تعالى وكرمه.